الظاهر بيبرس

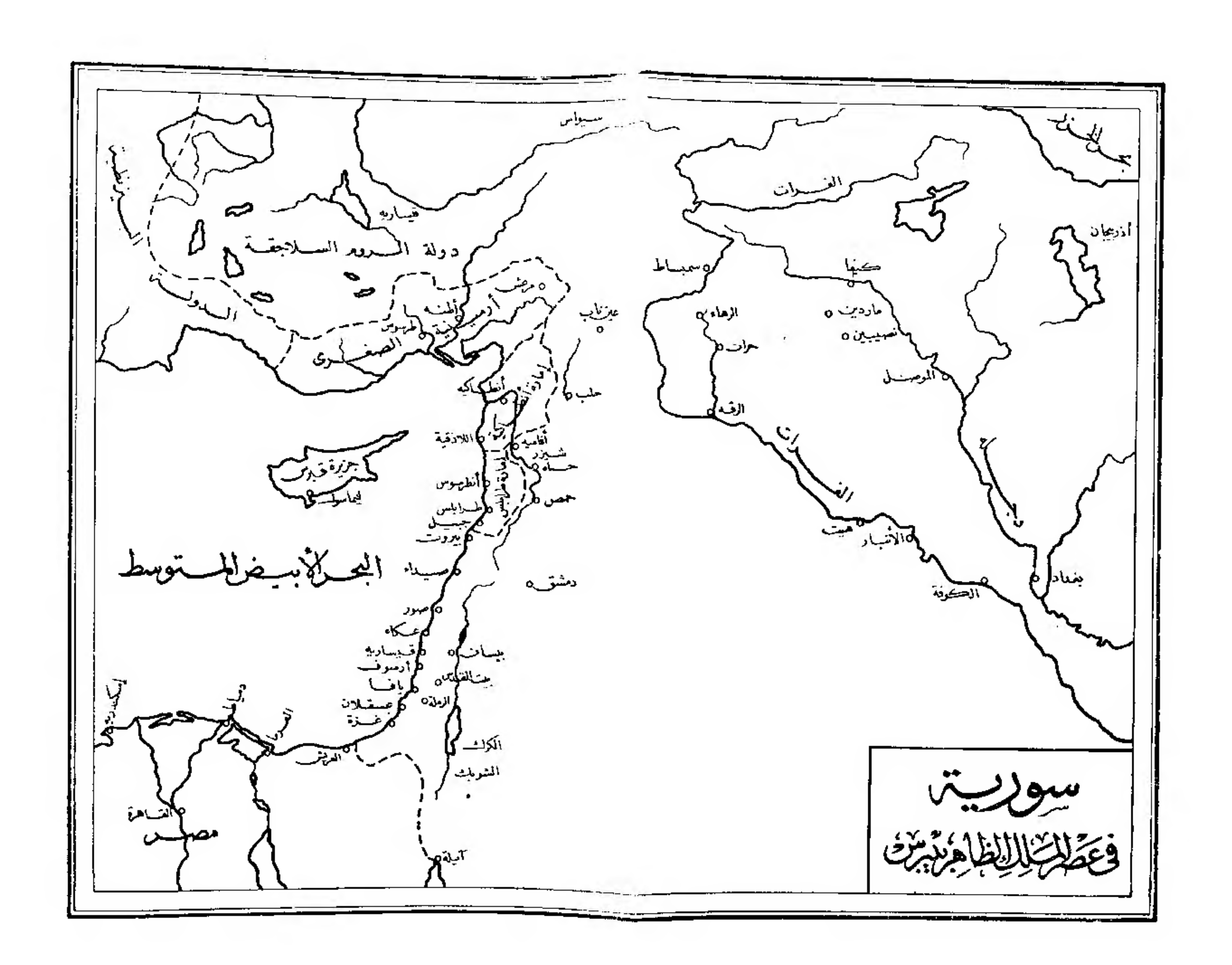
وحضارة مصر في عصره

تأليف

محمد جمال الدين سرور

الحائز لدرجتى ليسانسيه فى الاداب وماجستير فى الآداب (.M. A)

مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية



سورية
في عصر الملك الظاهر بيبرس
دولة الروم السلاجقة
أرمينية الصغرى
سيواس
قيسارية
الفرات
أذربيجان
سميساط
كيفا
الرهاء
ماردين
نصيبين
حران
الموصل
الرقة
عين تاب
حلب
أنطاكية
اللاذقية
أفامية
شيزر
حماة
أنطرسوس
حمص
طرابلس
جبيل
بيروت
صيداء
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
جزيرة قبرص
صور
عكاء
قيسارية
أرسوف
يافا
عسقلان
غزة
بيسان
الرملة
الكرك
الشوبك
القاهرة
مصر
أيلة
هيت
الأنبار
الكوفة
بغداد

بحضرة صاحب المعا
لأستاذ الجليل الدكتور محمد حسين هيكل

الظاهر بيبرس

وحضارة مصر فى عصره

تأليف

محمد جمال الدين سرور

الحائز لدرجتى ليسانسيه فى الآداب وماجستير فى الآداب (.M. A)

مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

الثمن ١٥ قرشا

تصـــدير الكتاب

بقلم المؤرخ الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية رسالة ممتعة ممتـازة عن " الظاهر بيـبرس وحضارة مصر فى عصره "، كشفت عن كثير من نواحى التاريخ الاسلامى بوجه عام وعن تاريخ مصر فى عصر المماليك بوجه خاص، وحققت رغبة كانت تتوق اليها نفوس الكثيرين من رجال العـلم والأدب فى مصر . قـد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا المصرى الحـافل بأسباب العظمة والمجـد مجهولة لكثير من المصريين والشرقيين ، مع أن فى كشفها كشفا عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الاسلامى كله . ولا ريب أن المؤرخين اذا حذوا حذو الأسـتاذ محمد جمال الدين سرور ونقبوا عن هذه الكنوز المدفونة فى بطون الكتب القديمة ، فقد أسدوا الى أمتهم و بلادهم أجل الخدمات وأسماها .

ولقـد عنى المؤلف فى هـذه الرسالة ببحث مسائل لم يسبقه إليها أحد من المؤرخين ، من حيث استقصاء المعلومات التاريخيـة وتنظيمها بأسـلوب جذاب وعبارة طلية وطريقة تحليليـة دقيقة . والمطلع عليها يرى أنه قد عالج فيهـا نواحى جديرة حقا بالبحث لاتصالهـا بتاريخنا القومى وحضارتنا فى عصر من أزهى العصور فى التاريخ المصرى الاسلامى، كظهور المماليك فى مصر، والعوامل التى أدت الى انتقال الحكم من أيدى الأيوبيين الى المماليك ، وكيف ظهر بيبرس على مسرح السياسة المصرية بقوة دهائه وحسن سياسته وبعد نظره وثاقب فكره، وكيف أحيي الخلافة الاسلامية فى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨م)، فأصبحت مصر بفضله مقر الخليفة العباسى وقلب الاسـلام النابض ، وعاد إليها

مجدها الدارس وعزها التالد منذ أيام الفاطميين الذين اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم ، والذين امتد سلطانهم على البلاد الاسلامية التى بين المحيط الأطلسى غربا و بلاد العراق شرقا و بين آسيا الصغرى شمالا و بلاد النوبة جنوبا ؛ كما أبان أيضا كيف وقفت مصر فى وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دقت معاقل الصليبيين فى بلاد الشام معقلا تلو معقل رغم ما كان يتتابع عليهم من نجدات أوربا المسيحية ، وكيف استطاع بيبرس أن يستولى على إمارة أنطاكية و مهد بذلك السبيل للقضاء على بقاياهم فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وقد حلل الأستاذ جمال الأسباب التى أدت الى فشل هؤلاء الصليبيين فى غزواتهم ، كما بين لنا كيف وقف بيبرس فى وجه المغول الطامعين فى مصر ، وكيف قضى على قوتهم فى الشام وحال بينهم و بين ما يشتهون ، بعد أن اجتاحوا الخلافة من بغداد وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب حتى أصبحت أثرا بعد عين .

ولم يكتف المؤلف بسرد هذه الحوادث وتحليلها ، بل أبان لنا بجلاء ووضوح كيف كانت مصر فى علاقتها بالتتار يتنازعها عاملان عظيمان : العامل الأوّل عامل دينى نشأ عن اعتناق بركة خان وكثير من أتباعه ببلاد القفجاق الدين الاسلامى وأيدته المصاهرة التى تمت بزواج ابنة هذا السلطان من الظاهر بيبرس ، والعامل الثانى عامل عدائى يرجع الى المحالفة التى عقدت بين هولاكو سلطان المغول فى فارس و جماعة الصليبيين الذين كانوا يناصبون مصر العداء .

وقد ألم الأستاذ جمال إلمامة عامة بعلاقات مصر الخارجية فى عصر الظاهر بيبرس مع أمم الغرب و بخاصة مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، وكيف استحكمت عرى المودة بين الامبراطوريتين المصرية والبيزنطية ، وكيف تبادلتا الرسل والهدايا ، وكيف توثقت العرى بين مصر وملكى صقلية وأرجونة (Aragon) وأمير إشبيلية ، وكيف أفادت مصر سياسيا وتجاريا من وراء هذه المحالفات . كما لم يفت المؤلف أن

يبين لنا كيف اتسع نفوذ مصر بين الأمم المجاورة لها والتى ترتبط بها بأواصر قوية من الدين واللغة والتقاليد كبلاد النوبة والحجاز .

وإننى لأنوه هنا بمزيد الغبطة والاعجاب بما كتبه المؤلف عن الحضارة المصرية فى عصر الظاهر بيبرس . فقد أعطى لنـا صورة واضحة جلية لا تدع مجالا للشك فى أن هـذا العصر كان من أزهى العصور الاسلامية قاطبـة ، فأعاد الى الأذهان عصر الرشيد والمأمون وعصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز فى النظام السياسى والادارى والقضائى والحربى ، وفى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وفى ازدهار رياض العلم والأدب ، والرقى الاجتماعى .

ولا غرو فقد بحث المؤلف نظام الحكم فى ذلك العصر ، وكيف عمل بيبرس على حصر وراثة العرش فى أسرته بعـد أن كان غنيمة لكل قوى يستطيع التغلب عليه ، مما كان يدعو الى التطاحن والتنافس بين الأمراء . وقد كان من الطريف الممتع ما كتبه المؤلف عن نظـام البلاط ممـا هو قريب الشبه بنظام البلاط الملكى فى عصرنا هـذا ، كما بين أن السلطان كان يستعين فى ادارة شـئون الدولة بولاة الأقاليم الذين كانوا يقومون بجمـع الخراج والرسوم الجمركية والاشراف على شـئون البـلاد .

كذلك بحث الأسـتاذ محمد جمال الدين سرور نظام البريد فى عصر بيبرس ، وكيف كانت تتبادل الرسائل داخل البلاد المصرية وخارجها بطريق البر والجو ، وأبان حالة الجيش فى ذلك العهد ، فوضح لنـا كيف أعطى بيبرس لجيشه جزءا كبيرا من عنايته لأنه القوة التى يعتمد عليهـا ويوطد بهـا عرشه ، فزاد فى عدده وعدده ، وبنى لمصر أسطولا كان نواة لأسطول قوى فى عهـد دولة المماليك بمصر ، كما نوه بما كان لبيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية الثروة المصرية عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة ليستعين بذلك على تعبئة الجيوش لصد الأعداء فى داخل البلاد وخارجها .

ومما يذكر للمؤلف بمزيد التقدير والاعجاب ذلك الفصل الممتع الذى كتبه عن الحياة العلمية والأدبية فى ذلك العصر الذى طالما ظن كثير من الناس أنه عصر حروب وتطاحن ، ليس للعلم ولا للأدب فيه حظ . فقد أظهر لنا شخصيات فذة بارزة فى نواحى العلم والأدب والشعر والثقافة العامة ، من أمثال : محيى الدين بن عبد الظاهر مؤلف كتاب " السيرة الظاهرية " ، والقاضى المؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب " وفيات الأعيان " ، وجمال الدين بن واصل الذى خلف لنا كتابه " مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب " ، والشاعر المبدع شرف الدين البوصيرى صاحب الهمزية والبردة . كذلك تكلم الأستاذ جمال عما خلفه الظاهر بيبرس من آثار عظيمة رغم انشغاله بالحروب والمعارك طيلة أيامه ، كالمدرسة الظاهرية ، والجامع الظاهرى ، وما أدخله من الاصلاحات على الجامع الأزهر .

ولا شك أن المطلع على هذا الكتاب يقف على ما بذله المؤلف من جهد متواصل وبحث عميق وتحليل دقيق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها مخطوطة كانت أو مطبوعة ؛ وهو فى نظرنا جدير كل الجدارة بأن ينال حظه من العناية والتقدير لدى جمهور المؤرخين والمثقفين فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ أنه يتناول بحث عصر يعتبر بحق من مفاخر التاريخ الاسلامى .

وإنا لنأمل فى الأستاذ جمال أن لا يقف جهوده عند هذا الحد ، وأن يجعل عمله هذا بداية لبحوث أخرى يواصلها فى بحث ما غمض من بقية تاريخ المماليك فى مصر . والله تعالى يوفقه ويسدد خطاه ".

الجيزة ، ٢٠ مايو سنة ١٩٣٨ — حسن ابراهيم حسن

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين !

وبعد، فهذا بحث قدمته إلى كلية الآداب، ونلت به وبغيره من الامتحانات درجة الماجستير فى الآداب . وإنى الآن أقدمه بين يدى القراء كمجهود ضئيل ساهمت به فى كشف بعض النواحى فى تاريخ مصر فى عصر المماليك .

وقد حملنى على الكتابة فيه شغفى بدراسة تاريخ مصر الاسلامية، ورفع الستار عن الحقائق التاريخية التى لم تتناولها أيدى الكتاب بالبحث والتحليل . وقد أمعنت النظر طويلا فى الموضوع الذى أكتب فيه رسالتى، فشرح الله صدرى لبحث عصر الظاهر بيبرس، لأنه العصر الذى تتجلى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها . ففيه وقف بيبرس فى وجه الصليبيين وصد غاراتهم، كما ناهض التتار عن مصر حتى ردهم على أعقابهم فانقلبوا خاسرين، فحفظ وطننا المحبوب من غارات أعدائه ؛ ولأنه العصر الذى ظهرت فيه الحضارة المصرية بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك التى قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب أو من بعيد .

وإن أنس لا أنس فضل أستاذى المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب، الذى غمرنى بفضله وأظلنى برعايته وأمدنى بإرشاداته، حتى قمت بتأليف هذه الرسالة على الشكل الذى يراها القراء عليه . فقد ساعدنى مساعدة قيمة فى تبويب الكتاب وتنسيقه، وأمدنى

بكثير من المعلومات فى بحثى هذا، وقـد كان من العسير علىّ أن أصل إليهـا، إذ استقاها لى من مراجع مخطوطة بمكاتب أوربا، كما أرشدنى إلى كثير من المراجع المخطوطة والمطبوعة مما له علاقة بهذا الموضوع، و بذل لى كثيرا من ضروب التشجيع خلال قيامى بإعداد تلك الرسالة، ولا سيما فى الوقت الذى كنت ألاقى فيه المتاعب فى جمع المعلومات المنثورة فى بطون الكتب المختلفة .

ولا أنكر أنه لولا ما نلته من عنايته وتشجيعه لمـا قمت باتمام هذا المؤلف ، كما لا أشك فى أننى بفضـل ما نلته من هذه الثمرة تجدّدت عندى عزيمة القيام ببحوث أخرى أتمم بها تاريخ دولة المماليك فى مصر .

و إنى لأسدى خالص شكرى وعاطر ثنائى لحضرات المؤرخين الأجلاء : الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كليـة الآداب ، والأستاذ عبـد الحميد العبادىّ ، والدكتور محمد مصطفى زياده على ما أولونى من تشجيع ورعاية وعلى ماقدّموه لى من إرشادات قيمة كان لها أثر كبير فى توجيه رسالتى وجهة سديدة .

كذلك أقدّم أجزل الشكر لحضرة الأستاذ الشيخ محمـد سليمان بدير خريج قسم التخصص بالأزهر الشريف والمدرّس بكلية أصول الدين لتفضله بقراءة الكتاب، كما لا يفوتنى أن أنوه شاكرا بهذه العناية التى بذلها حضرة محمد نديم أفندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية فى طبع هذا الكتاب وتنسيقه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا ؟

القاهرة فى { ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٧ / ١٢ مايـــو ســـنة ١٩٣٨ }

محمد جمال الدين سرور

محتويات الكتاب

صفحة

بحث فى مصادر الكتاب

تمتـاز المراجع المخطوطة التى اعتمدت عليها فى كتابى هـذا بأن مؤلفيها عاشوا فى عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية فى مصر فى عهده وفى عهـد من خلفه من سلاطين المماليك ولذلك فانها تعدّ من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية فى دراسة عصر الظاهر بيبرس .

ومن المؤرخين الذين عاشوا فى أيام الملك الظاهر : جمـال الدين بن واصـل المتوفى سنة ٦٩٧ ﻫ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب "مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب" وهو مخطوط بدار الكتب الملكية ويعتمد عليه فى دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر . وقد اعتمدت عليه فى استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام فى وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر . فهو من هـذه الناحية يوضح السبب الذى من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذى خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر . ويمـدّنا هذا المرجع أيضا بمعلومات لهـا قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقة بيبرس بجزيرة صقلية . ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب الى جزيرة صقلية سـنة ٦٦١ ﻫ رسولا من قبل الملك الظاهر يحمل هدية الى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته الى سنة ٦٨٠ ﻫ ملخصا عن كتاب آخر اسمـه التاريخ لا يعرف اسم مؤلفه .

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ ﻫ صاحب كتاب "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" وهو مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية فقد تولى بعض المناصب الإدارية فى عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ثم عزله

ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيسا لديوان الانشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار(١) وأخذ يترقى فى مناصب الدولة حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده فى مصر فى ذلك العصر . فكتابه يعتبر من المراجع الهامة فى دراسة التاريخ السياسى فى عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع فى دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم الهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ صاحب كتاب "الذيل على مرآة الزمان" وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب الملكية وقد ضاع جل أجزائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى اعتمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الاثار العربية مدفونا بجامع قايتباى وذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى استطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقريزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضا كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

فالجزء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية والذى لم يتم طبعه بعد يمدنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هـذا المخطوط فى بحث موضوع إحياء الخلافة العباسـية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التى اعتمدت عليهـا أيضا كتاب " رفع الإصر عن قضاة مصر " لابن حجر العسقلانى المتوفى سـنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقـد أعاننى على معالجـة أحد مواضيع كتابى وهو نظام القضاء فى عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه فى بحث سياسة بيبرس الخارجية وهو عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سـنة ٨٥٥ هـ . فالجزء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية يمدنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيرا ما ينقل عن بيبرس الدوادار صاحب كتاب " زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة " .

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب "النجوم الزاهرة" لأبى المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أخذت دار الكتب فى نشره وانتهت منـه الى أواخر عصر الدولة الأيوبية . وقد أمدنى بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التى مر بها قبل دخوله فى حوزة الملك الصالح . وهو يروى لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمـام الشبه ما ذكره اليونينى عن نشأته . كذلك يمدنا هـذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة مصر ومبايعته للخليفة العباسى ومحاربتـه للصليبيين

والمغول وعن منشئاته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما الى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيرا ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات برمتها عن كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقى الدين المقريزى .

وهناك أيضا كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب "عيون التواريخ" لابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢م) المخطوط بدار الكتب الملكية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيرا من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارئ قراءتها لضياع كثير من كلماتها ، وفضلا عن ذلك فان هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس واصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " لمؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبد الله بن عبدالظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طلب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس[1] " وكان كاتب سره البليغ محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن شيخ الاسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرّخ وقايعه (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ... لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الغث والسمين وأن

(١) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ٤ أ .

يكرر مايشافه به سمع سلطانه من اطراء و إن كان فيه صادق لا يمين . وكان رحمه الله قد تحدث معى فى اختصارها فلم يتفق فى حياته ولم يقع تأدبا معه فى اثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة فى الإيجاز الذى هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المساغة وذكرت منها الأهم المقدّم لتلذ مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق" .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها فى استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : "كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد" لمفضل ابن أبى الفضائل الذى لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ هـ . وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه عاش فى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التى لاتزال مخطوطة الى الآن . نخص بالذكر منها كتاب "السيرة الظاهرية" لمحيي الدين بن عبد الظاهر و "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" لبيبرس الدوادار و "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى . وعلى الرغم من أن مفضل بن أبى الفضائل كان مسيحى المذهب فانه اتبع فى تأليفه الخطة التى سار عليها المؤرخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرّخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدنى هذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيبرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التى تبودلت بينه وبين نجاشى الحبشة وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهامة عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيبرس عرش السلطنة بها ، وسياسته الخارجية مع الصليبيين والمغول ، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وما قام به من الاصلاحات . والمقريزى فى كل هذه الموضوعات يمدّنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيرا عن النويرى فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والمماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب " المختصر فى أخبار البشر " لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد أمدّنى بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر، كما أعاننى على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر . هذا وغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب " العبر وديوان المبتدا والخبر " لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . و " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأمتعها فى بحث النظم الادارية والمالية فى عصر بيبرس كتاب " صبح الأعشى فى صناعة الانشا " لأبى العباس أحمد القلقشندى ، وكذلك كتاب " المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار " للمقريزى ، و " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " للسيوطى . فيمدّنا السفر الأوّل بكثير من المعلومات عن ديوان الانشاء . وقد أفرد القلقشندى الجزءين الأوّل والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، كما يمدّنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين فى ذلك العصر وعن الطبقات التى كان يتكوّن منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين المماليك من أبهة وجلال . أما كتاب الخطط للمقريزى فقد اعتمدت عليه فى وصف منشئات بيبرس والأسواق التجارية التى كانت فى عصره كما ساعدنى على بحث النظام الإدارى فى عصره والوظائف الهامة التى أنشأها . كذلك يمدّنا السيوطى ببعض المعلومات عن الموظفين فى ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك .

وهناك كتاب تتهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع فى ثلاثين جزءا . وكنت أظن أنه يحوى شيئا ذا غناء فى سيرة هذا

البطل العظيم ولكنى تصفحته فاذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التى لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الافرنجية التى اعتمدت عليها كتاب :

Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt" وقد أمدّنى بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول، وعن رغبة بيبرس فى حصر وراثة العرش فى أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها فى بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهى : كتاب "Stevenson, "The crusaders in the East وكتاب : ,Barker "The crusades" وكتاب : King, "The Knights Hospitallers in the "Holy Land . وهذه الكتب لم تفصّل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجليلة ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الانجليزية لمذكرات جوانفيل عن حملة لويس التاسع على مصر : Memoirs of the crusades" by Villehardouin &" Joinville, translated by Sir Frank Marzials. وعما كتبه Davies فى كتابه : "Invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France" و Stanley Lane-Poole فى كتابه : A History of Egypt in the" ".Middle Ages عن هذه الحملة أيضا . وعلى الرغم من أن جوانفيل قدم الى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التى وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدّنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس فى صدّ هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذى اعتمد على ما كتبه جوانفيل فى مذكراته لا يمدّنا بمعلومات هامة فى هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضح لنا فضل بيبرس وفرقة المماليك

فى صدّ حملة لويس التاسع عن مصر، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوربا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التى اعتمدت عليها فى دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب Browne, "Literary History of Persia" ، فهذا المرجع يمدّنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية، وعن الدور الذى قام به بيبرس فى صدّ جند هولاكو المغولية فى موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر، كما يوضح لنا أيضا ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم فى موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه فى بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون بلاد القفجاق وهو كتاب: Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam وقد أمدّنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الاسلام بين أهالى القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول الى مصر واعتناقهم الاسلام بها .

ومن الكتب الممتعة التى اعتمدت عليها فى بحث حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس كتاب : Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعاننى هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية فى عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التى عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوربا وبعض الأمراء الشرقيين .

الباب الأول

نشأة بيبرس

---

١ — ظهور المماليك فى مصر .

٢ — بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب .

٣ — بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

الباب الاول

نشـــأة بيـــــبرس

١ — ظهـــور المـــاليك فى مصر

يجمل بنا قبل أن نمضى فى الكلام عن حياة بيبرس أن نوجز القول عن ظهور المـاليك فى مصر . ولا بأس من أن نرجع قليـلا الى تاريخ الدولة العباسـية التى وضعت الأساس الأول لاستخدام عناصر أجنبية تقوم بإدارة الدولة دون الاعتماد على عصبيتها . تلك السنة التى كان لها أكبر الأثر فى اضمحلالها والتى درج عليها بقية الدول الاسلامية بعدها .

قامت الدولة العباسية فى مبدأ أمرها على أكتاف الفرس[١] . ومن ثم كان لهم الحظوة التامة عند الخلفاء العباسيين . فقد ألقوا اليهم مقاليد الدولة كما عهدوا اليهم بالشئون الخطيرة فيهـا كالوزارة والحجابة وما الى ذلك من مهام الدولة . نرى ذلك جليا فى بيتى بنى برمك وبنى سهل . بيد أن هؤلاء الفرس لم يقفوا عند هذا الحد . بل أخذوا فى سلب السلطة تدريجيا من أيدى الخلفاء العباسيين . ولقد شعر بذلك بعضهم فأوقع بهم قبـل أن يوقعوا به وأدرك العباسيون أنهم فى الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ ذلك أنهـم أبعدوا العرب عن مناصب الدولة ولم يعـد فى استطاعة الخلفاء أن يعيدوهم الى ما كانوا عليـه من سلطة ونفوذ ولم يبق أمامهم إلا البحث عن عنصر جديد بعيد عن أهواء العرب السياسية ومصالح الفرس الخاصـة . فلجأوا الى العنصر التركى لاعتقادهم أنه مجرد من الطموح الذى امتاز به الفرس والعصبية التى عرف بهـا العرب . وهـذه السياسة نراها واضحة فى عهـد

---

(١) Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.433.

المعتصم[١] الذى اصطنع الأتراك واستخدمهم فى جيشه وعهد اليهم بولاية الأقاليم؛ غير أنه سرعان ماظهر خطأ هذه السياسة فتدخل هؤلاء الأتراك على مر الأيام فى تولية الخليفة وعزله اذا لم يحز رضاهم . ظهر ذلك جليا بعد وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) حيث عرض عليهم ابنه فلم يوافقوا على توليته لصغر سنه ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فلق هذا الاختيار قبولا لديهم[٢]؛ ومن ثم لم يجد الناس بدا من مبايعته .

وهكذا صار أمر الخلافة بأيدى هؤلاء الأتراك . وهذا يفسر لنا طمع الأمراء واستقلالهم بالأقاليم الاسلامية الأمر الذى أضعف الخلافة العباسية وأدى الى سقوطها فى النهاية على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وأما استخدام المماليك فى مصر فانه يرجع الى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ)، [٨٦٨ — ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديالمة ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس[٣] أن عدد هؤلاء المماليك وصل الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الاخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، [٩٣٥ — ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طغج الاخشيد . وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن[٤] "أنه كان متجملا فى موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهى موكب الخلافة وبلغت عدّة مماليكه ثمانية آلاف مملوك" . ولما جاء الفاطميون الى مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، [٩٦٩ — ١١٧١م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدّة عناصر أهمها :

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١١ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ ؛ Sir William Muir, The Caliphate. p. 513

(٢) Sir William Muir. Op. Cit. p. 523.

(٣) تاريخ مصر : ج ١ ص ٣٧

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

(١) المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة فى بلاد المغرب .

(٢) السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .

(٣) الأتراك الذين اشـتراهم الخلفـاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعـد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم فى عهـد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحـلال الدولة الفاطمية وزوالهـا سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العـداء بينهم و بين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصليبيين ممـا أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق فى أمر مصر و إرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيـه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقضوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقـد نجح صلاح الدين فى توطيد سلطته فى مصر وانضـوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت الى الحضيض سلطة العاضـد آخر الخلفـاء الفاطميين . وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين[١] مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ)، [١١٧١ — ١٢٥٠ م] ولم يكن سلاطينها مصريين — كما نعـلم — بل كانوا أجانب عن هذه البلاد . جاءوا إليها من أذربيجان[٢] ، وقد عملوا على جلب الأتراك إليها و بذلوا الأموال الضخمة فى شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

---

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه و بدأ عمله بالانتصار على الفرنجة فى دمياط فاعتبره المصريون حاميا لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه فى مصر . فأرسل اليـه نور الدين يرغبه فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى . غير أن صلاح الدين تردّد فى تنفيذ هذه الرغبـة حتى لا يثير أهالى مصر . وكان الخليفة فى ذلك الوقت مريضا . فعقد صـلاح الدين مجلسا من الأمراء استشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة فوافقه بعضهم وتردّد البعض الآخر وكان فى هذا المجلس رجل فارسى اعتزم أن يتولى بنفسه هـذا الأمر فصعد المنبر ودعا للستضىء العباسى . ولمـا لم يحتج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسى . و بعد أيام قلائل توفى الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون فى مصر : الدكتور حسن ابراهيم ص ٣٠٨ و ٣١١ — ٣١٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٩

وكان أكثر الأيوبيين استجلابا لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فقد روى لنا أبو المحاسن[١] وابن إياس[٢] أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما خذله أنصاره وانفض عنه أعوانه من الأكراد وجد فيهم عدّته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ؛ فتكوّن عنده منهم جمع غفير زاحموا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال فى ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوبُ أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب

يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . [سورة الأنبياء]

٢ – بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدّة رجال كان لهم أثر كبير فى تغيير مجرى السياسة المصرية نخص بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذى أصبح فيما بعد سلطانا على مصر وعمّ صيته أكثر بقاع الأرض وصار بعد وفاته موضع حديث الناس وسمرهم يتغنى المصريون بأخباره و يترنمون بما قدّم لهم ولممالك الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفاخر .

وعلى الرغم من أن بيبرس قام بكثير من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره فانا لا نجد له فى كتب التاريخ ما يشفى الغلة عن تفاصيل حياته الأولى ولا ما يكشف لنا القناع عن تطوّراته منذ ولد إلى أن بيع فى البلاد الشامية . نعم لن يضيرنا ذلك فى مثل بيبرس الذى فاق من تقدّمه من الملوك والسلاطين بمواجهة الأخطار المحدقة

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥

(٢) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٣

بشرق البـلاد الإسلامية وغربها، وبذل كل ما لديه من عدّة لإيقاف هـذا التيار الجارف ورد هؤلاء المغيرين على أعقابهـم حتى كتب له النصر عليهـم ورد كيدهم فى نحورهم، وكوّن مملكة متحدة الأواصر مرتبطة العرى من تلك الأقطار التى امتدّ إليها نفـوذ الصليبيين والتى شملها استبداد الأمم التتارية ولاقت من صنوف الأذى ما جعلها ترحب بكل من مدّ لهـا يد المساعدة لينتشلها من هـذه الهوّة السحيقة التى سقطت فيها .

وقـد أجمع المؤرّخون على أنه ولد ببلاد القفجاق[1] وقضى بهـا شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . غير أنهم اختلفوا فى الجهة التى بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدّثنا المقريزى[2] أن تاجرا قدم به إلى حماه . ولمـا عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه[3] فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم ردّه مشتريه لبياض فى إحدى عينيه ؛ فاشـتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار[4] مملوك الملك الصـالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام فى خدمته مدّة ثم أخذه منه الملك الصالح .

---

(١) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضى التى حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثانى ص ٦٣٧

(٣) أورد ابن واصل "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" ج ٢ ص ٤٤٠ ب، فى هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ما حدث لبيبرس بعد ذلك مفصلا . وهاك نصهـا مع بعض التصرف : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لتراه الصاحبة والدته فمن أشارت بابتياعه أخذ . وكان الملك المنصور لمـا بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدّم باحضاره فأحضر ومعه خشداش له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلمـا استأذنها السـلطان ولدها فى شرائهما . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة (يعنى الملك الظاهر) فان عينيه فيها الشر لائح . فردّهما على التاجر . ولمـا بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث فى طلبهما . وعند ما قدما إليه اشتراهما وهو فى الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه" .

(٤) البندقدار : هو حامل الجراوه (كيس البنـدق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٥ ؛ ج ٥ ص ٤٥٨

ويروى الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ فى كتابه "الذيل على مرآة الزمان"[١] وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ فى كتابه "النجوم الزاهرة"[٢] عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سيواس على[٣] أثر بيعه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عند ما قبض عليه فى شوال سنة ٦٤٤ هـ .

وبينما تتضارب الروايات فى تاريخ مولده[٤]، وفى الزمن الذى بيع فيه الى علاء الدين وفى أى بلد كان ذلك البيع فانا لا نجد فيها جميعها شيئا ذا غناء، اللهم إلا منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه فى حوزة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومن هنا نرى له الكثير فى كتب التاريخ وسنعرض لذلك بشىء من الإسهاب .

٣ — بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر

بدأ بيبرس على أثر انتقاله الى ملك الملك الصالح[٥] حياة جديدة تغاير تمام المغايرة

(١) ج ١٧ ورقة ٩٨ (٢) ج ٣ القسم الثانى ورقة ٢٣٢ (٣) هناك عبارة وجهها رسول أبغا ملك التتار للظاهر بيبرس عند ما قدم إليه للمفاوضة معه فى عقد الصلح سنة ٦٦٧ هـ يفهم منها أن بيبرس بيع بسيواس وهذه العبارة هى : "أنت مملوك وأبعت فى سيواس فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض" . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٣ - ٥٧٤ هـ (٤) ورد فى (Enc. Isl. Art. Baibars I) أن بيبرس ولد سنة ٦٢٢ هـ . وهذا يخالف ما رواه أبو المحاسن ج ٣ القسم الثانى ورقة ٢٣٢ من أنه ولد سنة ٦٢٥ هـ . (٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ هـ . وقد قصد بهذا أن يبعده عن مصر فيخلو بذلك الجو له ولولده العادل ولى العهد من بعده . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح وانتهز فرصة استدعاء المصريين له وهم بمغادرة الشام الى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنابلس وما لبث أن أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفى هذه الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل واتفق المماليك الكاملية على استدعاء الملك الصالح فسار ومعه مماليكه الى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل فى السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦

ماكان عليه فى حياته الأولى من يوم أن وصل الى بلاد الشام . فقــد اتخذه الملك الصالح ســنة ٦٤٤ ﻫ (١٢٤٦ م) رئيسا لإحدى فرق حرســه الخاص[١] لمــا رآه فيه من الهمة الشماء والفطنة والذكاء، وظــل يرتفع ذكــره ويسمو قدره ويتدرّج فى المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى صدّ حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذى قام به بيبرس فى صدّ هذه الحملة يجمل بنــا أن نذكر شيئا عن سبب قيامها والعقبات التى صادفتها حتى اشترك بيبرس فى صدّها :

لمــا انقضت الجيوش الخوارزمية[٢] على سوريا ســنة ١٢٤٤ م وخربت بيت المقــدس أثار ذلك ملوك أوربا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا الى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون[٣] . غير أن هــذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عنــد مرورها بقبرس فى أوائل ســنة ١٢٤٩ م . فجنح أكثر من نصف سفنهــا الى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعمائة قطعة، ونزح سكان دمياط الى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التــاسع وتركوا مراكب التعــدية فعــبرت جيوش لويس عليهــا بدون عنــاء[٤] .

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره فى التقدّم جنوباً إذ كان يجب عليه أن يتقدّم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفيق

---

(١) Enc. Isl. Art Baibars I.

(٢) هؤلاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمى . وقد ساروا بعــد مقتله إلى كيقباذ ملك الروم السلاجقة ثم فارقوه لمــا قبض على أكبر مقدّميهم ، فاستمالهم الصالح أيوب واستأذن أباه الملك الكامل فى استخدامهم فى جيشه فأذن له بذلك . أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. pp. 324-326.

(٤) Joinville, Memoirs of the Crusades p. 116. ؛ Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France p. 26.

المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط . وبدلا من التقـدّم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التى بعثرتها العواصف، ثم تقدّمت جيوشه من دمياط فى طريقهم الى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور . غير أن جهلها الطريق كان سـببا فى تأخيرها فاستغرقت شهرا كاملا فى قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلا وبتأخر تلك الحملة فى دمياط وتعثرها فى الطريق ذلك الوقت الطويل أتيحت للمسلمين الفرصـة فجمعوا شملهم وضمـوا صـــفوفهم[1] .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا الى شارمساح — وتقع فى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكى يتقدّموا جنوبا وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طناح . فاختار لويس الطريق الأسهل وعمـل على بناء سـدّ فى عرض النهر الصغير[2] ، وأنشأ أبراجا متحركة لتحمى الجنود الذين يعملون فى السدّ . غير أن المسلمين بدأوا فى مناوشة هؤلاء الجنود وعبرت فرقة منهم هـذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبى فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرّضا للخطر من جميع الجهات[3] .

وفى تلك الأثنـاء تقدّم أحد أهالى بلدة سـلامون وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشمـوم طناح فى مقابل مبلغ من المـال[4] . فاستخدمه الملك لويس دليلا، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات : أولها الفرسان الداوية . وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس)، وثالثها فرقة الملك[5] .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 232-233

(٢) ويعرف الآن باسم البحر الصغير .

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 234.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38.

(٥) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أوّل الأمر . غير أن روبرت كونت أرتوا بمجرد عبور الفرقة الثانية عزم على التقدّم للحاق بالعدو ثم اقتحم معسكر المسلمين ، فاخترقه من مقدّمته الى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتـل القائد فخـر الدين فانهزم المسلمون وتفرّقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين ، فقد ثبتت فرقة المماليك أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الإستيلاء على قصر السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيبرس الذى انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة واندفع جنود الصليبيين فى شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت أرتوا وفرقته[1] .

أما بقية الصليبيين فلحقت بالملك لويس عند السدّ الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هذا لهجوم الفرق المملوكية التى أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهـزم جيش المسلمين وخاصة بعـد أن فقد كثيرا من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وعندما أصبح مركز لويس حرجا فكر فى بنـاء جسر مؤقت على الجـزء الذى لم ينته من السدّ . ولمـا تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تأتى لنجدته ؛ غير أن النجاح فى بنـاء هذا الجسر لم يغير شيئا من موقف جيش لويس فلم يمهله المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر فى الوقت الذى لم يكن لهم سلطان يأتمرون بأمره . فقد توفى الملك الصالح فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م عندما بدأ الصليبيون يتقدّمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه بعيـدا عن مصر بحصن كيفا[2] فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته حتى لايتطرّق الوهن الى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال اذا علموا بموت

---

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 234-235 ؛ Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39.

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 236-237.

السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المصرية ، وأحضرت الأميرين فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت اليهما بموت الملك الصالح واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر ابن زوجها تورانشاه من حصن كيفا[1]. فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع السلطان الملك الصالح؛ وقد قيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل يشابه توقيعه توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم بوفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير فخر الدين فكتب الى تورانشاه يطلب منه التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعوا على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح[2] .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه الى مصر ، فنزل بقصر السلطنة بالمنصورة وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحروب بنفسه ويدبر خطتها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن يختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين . وكان أوّل ماقام به من الأعمال أن نقل أسطولا[3] من المراكب على ظهور الجمال الى نقطة على فرع دمياط شمالى المراكب الفرنسية ، وهناك اشتبك الأسطولان المصرى والفرنسى ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيرا من مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة اذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها مقاومة تقدّم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميرة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين والمماليك ، فضاقت الوسائل بالصليبيين وثارت نفوس الجند من قلة الأزواد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من آمد .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) حملت هذه المراكب من سمنود الى القناة التى تعرف الآن باسم بحر شبين Davis, Invasion of Egypt By Louis IX of France p. 46

وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابرا لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأزق ؛ فاضطر الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القـدس وبعض بلاد الســاحل . فأبى عليهم المصريون ذلك . فأحرق الصليبيون أخشابهم وأتلفوا مراكبهم ولجأوا الى التحصن فى دمياط . فركب المسلمون أقفيتهم وحاربوهم حتى أوصــلوهم الى فارسكور ؛ وهناك حملوا على الفريخة حملة صادقة[1] واستماتت المماليك فى الدفاع بقيادة بيبرس حتى أزاحوا الصليبيين عن موقفهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، كما أسروا كثيرا من الأمراء والجنود وامتلأت أيديهم بالغنائم من السلاح والخيول وغير ذلك[2] .

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه الى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به؛ فتبعهم المسلمون وشدّدوا عليهم الحصار فاضطروا الى التسليم على أن يؤمنوا على حيــاتهم . وكان يبلغ عددهم خمســة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف، وسيق لويس معتقلا الى دار القاضى ابراهيم بن لقمان بالمنصورة[3]، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المــال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط[4] .

علت كلمة المــاليك البحرية وعلى رأسهــم بيبرس واشتد أزرهم بهــذا النصر المبين الذى أحرزوه فى موقعــة فارسكور . وحينئذ نراهم يضمرون السوء لسلطانهم تورانشاه حين قرب اليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيفا وأحلهم محل مماليك أبيه البحرية فى مناصب الدولة، ولتضييقه على زوجة أبيه شجرة الدر وتوعده لهــا ان لم تقر له بمــال أبيه . فلما ضاق بهــا الصدر وعيل منها الصبر أرسلت الى المــاليك تقول لهــم " اقتلوا تورانشاه وعلىّ رضاكم " . فصادف قولها هذا هوى

---

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 238.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣) تعرف الآن بسجن لويس و يقصد اليهــا كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ أسر لويس بها .

(٤) Davis, Op. Cit. pp. 51.57

فى نفوس المماليك، وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ما كان يبلغهم عنه أنه اذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول "هكذا أفعل بالمماليك البحرية" ويذكر أسماءهم واحدا بعد آخر. كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعا. فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أمراؤهم تنفيذ مااعتزموا عليه بزعامة بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاى الجامدار وأيبك التركمانى وغيرهم.

فلما أقيم السماط على أثر نزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ ﻫ تقدم إليه هؤلاء البحرية وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه فى ذلك الأمراء، ففر تورانشاه هاربا ودخل برجا من الخشب كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور، وأغلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار فى البرج فألقى بنفسه فى النيل وأخذ يسبح طالبا النجاة بنفسه. فلم يغنه ذلك شيئا ورموه بالنشاب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول "خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا". فلم يلتفت أحد الى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بأن مات قتيلا غريقا حريقا. ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على شاطئه ثلاثة أيام. ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم وورى التراب فى مكانها [1].

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم. وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك [2].

(١) المقريزى السلوك : ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ — ٣٦٠، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

---

١ — انتقال السلطة الى المماليك .

٢ — ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية .

الباب الثانى

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

١ — انتقال السلطة الى المماليك

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه[١]. فأخذت تتقرب من أرباب الدولة وتمنحهم الرتب والاقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة[٢]. على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة[٣]. فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب.

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها فى التخلى عن الحكم. فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة[٤]؛ فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت فى الحكم ثمانين يوما برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة فى تصريف الأمور وتدبير الملك[٥].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٣) لما علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له. المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٤) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 250

(٥) ابن إياس : ج ١ ص ٩٠

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير . ولا عجب فى هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتابك العسكر سلطانا على مصر ولقبوه بالمعز، غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبى معه فى السلطنة واتفقوا على تولية الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين.[1] وقد علل ابن واصل[2] رغبة هؤلاء الأمراء فى اشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبك الى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهم فى التدخل فى شئون الدولة .

انتهز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر فى ذلك الوقت وخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها . فلما ورد الخبر بذلك الى مصر اضطربت الدولة، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعدّ العدّة لملاقاته حتى قدمت جيوشه الى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسة فى معركة هزم فيها المصريون أول الأمر ؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام[3] .

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسنا فى صد جيوش الناصر ، فارتكبوا كثيرا من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقريزى[4] : " فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبى بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر

---

(١) المقريزى : السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٣٧٦ أ

(٣) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥

(٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية وكان كبراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى " .

لم يكد المعز أيبك يفرغ من صدّ جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاكو سار من قره قورم (Karakarum) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد (١) . فانتهز المعز هذه الفرصة وأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهق الأهلين بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التى لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة بمصر ؛ ثم عقد صلحا مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للمعز إلى نهر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك (٢) .

ولما اطمأنت نفس المعز أيبك من ناحية بلاد الشام شرع فى تهدئة ثائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرّية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب؛ فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاى وغيره من الأمراء فاقتتل الفريقان بالقرب من بلبيس وتفرّق كثير من العرب عن حصن الدين ، فولى منهزما ؛ ثم سار المماليك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه؛ غير أن المعز لم يلبث أن نقض الأمان عند ماسار حصن الدين إلى بلبيس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدّد شمل العرب فى مصر (٣) .

---

(١) Browne, A Literary History of Persia, Vol. II. pp. 452-453.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

(٣) المقريزى : نفس المرجع ص ٣٨٦ - ٣٨٨

ويرجع سبب هذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهم أن مصر عربية دينا ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربى مستقل يحكمهم ، فغضبت نفوسهم وثارت حميتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب دبيبها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدى العرب فى مصر ضدّ الطولونيين والأتراك(١) .

لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاى وكان قد استفحل أمره فى ذلك الوقت ، فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقلعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية(٢) على قتله إذا مر بهم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقلعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القلعة وشاع خبر قتله ، فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاى فسقط فى أيديهم وانفضوا خائبين وأدركوا أن المكيدة لاحقة بهم(٣) ، فاجتمع رؤساؤهم بيبرس وقلاوون الألفى وسنقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البلاد الشامية . وسرعان ما علم المعز بنواياهم فأغلق دونهم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب القراطين(٤) وخرجوا منه هاربين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايروهم . ولما تشتت شملهم استصفى المعز أملاكهم واسترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاى إلى بيت المال وأضاف أعمال الاسكندرية إلى أعمال السلطان وبذلك صفا له الجو وانفرد بتدبير المملكة(٥) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. pp. 259, 261-262

(٢) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له مماليك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٤) عرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرقى. Lane-Poole : Cairo, p. 129.

(٥) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٨ — ٣٩٢

خرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنونه فى القدوم عليه فأذن لهم[1]؛ وعند ما وصلوا إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد الساحلية . ولما استقروا لديه أغروه بمحاربة مصر والاستيلاء عليها؛ فصادف كلامهم هوى فى نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة؛ وسرعان ما أعدّ سلطان مصر جيشه أيضا وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاتلهم قبل أن يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسة ولم يجر بينهما قتال ، بل دارت المفاوضات وتم الأمر بالصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب (أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤذى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية[2] وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة الدر من شوكته، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ عليها من غطرسة وشدّة . وكانت قد أعدّت خمسة من الخدّام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص؛ فقام هؤلاء الخدّام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأوّل سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد أغمى عليه . وفى الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه ابنه على ومماليكه ثم قبضوا على شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضربنها بالنعال حتى ماتت فى ربيع الثانى من هذه السنة وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها اليوم .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨

ولى الأمراء مكان المعز أيبك ابنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة اذ ذاك علم الدين سنجر الحلبي والوزير شرف الدين بن صاعد الفائزى. فلما تم الأمر لعلى بن أيبك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز[١] نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على أمواله ؛ ثم ولى فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز فى النيابة لابن أيبك وتولى قيادة الجيش لصد المماليك البحرية والمغيث على ما سيأتى — وكانوا قد حسنوا للمغيث أخذها لما علموا أن التتار على وشك مهاجمتها بعد استلائهم على الشام . وفى عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان[٢] .

لم يرض المماليك البحرية بهذا الصلح الذى عقد بين الملك الناصر والمعز أيبك، ونمى الى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم الى غزة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة الى الملك المغيث صاحب الكرك، فأرسل اليهم الناصر عسكرا لمقاتلتهم فانتصر عليهم المماليك البحرية وهزموهم، ثم أعاد عسكر الناصر الكرة فانتصروا وطردوا البحرية الى البلقاء[٣] ملتجئين الى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمة وأطمعوه هو أيضا فى ملك مصر فجهزهم بالعدد والعدد[٤] ، وساروا متجهين الى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز، والتقى الفريقان بالصالحية فانهزم المماليك البحرية ومن معهم وأسر منهم قلاوون الصالحى و بلبان الرشيدى وغيرهما ، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك[٥] .

---

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسر فى حروب التتر و بيع بدمشق للمعز أيبك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩؛ .E nc. Isl Kutus, s.v.

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤

(٣) كورة من أعمال دمشق . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦

أما عن موقف الملك الناصر فى ذلك الوقت فانه أنفذ ابنــه الملك العزيز الى هولاكو يطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاكو الى ماطلب . غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق فى ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا الى الملك المغيث بالكرك وحببوا اليه أخذ مصر، فسار فى عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وقدم اليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدّم اليهم قطز فى عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفرّ المغيث الى الكرك(١) . أما المماليك البحرية فانهــم ذهبوا الى الطور(٢) واجتمعوا بمن هنــاك من الأكراد الفارّين من التتار وصاهروهم . وقد أثار هــذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز اليهم عسكرا من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر ؛ ثم عاود قتــالهم وسار على رأس جيشه فخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا الى بلاد الكرك ، فأرسل الناصر الى المغيث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية . وتردّدت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيث الشهرزورية(٣) .

لمــا علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية الى الملك الناصر فأحسن اليهم ، وقبض الملك المغيث على من بقى عنده من المماليك البحرية و بعث بهم الى الناصر فحبسهم بقلعة حلب(٤) . وقد ظلوا بها الى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاكو مع من أسر الى بلاده(٥) .

---

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٥ ؛ المقريزى : السلوك ص ٤١٠ و ٤١١

(٢) المقصود بها طور سيناء .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٤ ؛ والشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهى إحدى جهات كردستان . وكان بتــلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى اســتولى هولاكو على بغداد وتقدّمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففرّ الشهرزورية من وجه التتار إلى الشام ومصر . Enc. Isl. Art. shehrizur.

(٤) أبو الفــدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٨

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٧٨

يتضح لنا مما تقدّم كيف ازداد نفوذ المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس ، كما نرى من هذه المنازعات التى حدثت بينهم وبين المعز أيبك كيف أن السلطة فى مصر يتنازعها فريق من أمراء المماليك؛ وكان لهذا أثره فى حالة مصر الداخلية فى ذلك الوقت فشغل المعز أيبك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التى أثارها المماليك البحرية . وان الناظر الى هذه المناقشة التى دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردى على أثر الكتاب الذى أرسله المعز أيبك الى سلطان الروم عندما التجأ اليه فريق من المماليك فرارا من غدر المعز أيبك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحكم بين المعز أيبك والمماليك البحرية . وفى ذلك يقول المعز فى كتابه الى سلطان الروم "البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خافوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدّارون مكارون خوانون، ولا آمن أن يمكروا عليك" . كان لهذا الكتاب أثره فى سلطان الروم؛ فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : "يا أمراء! ما لكم ولأستاذكم"؟ فتقدّم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا ! من هو أستاذنا؟ قال : "الملك المعز صاحب مصر". فقال الباشقردى : "يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خوشداشنا[1] ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا اليك[2]" .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم "لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك

(١) الخشداشية فى اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة وتقابلها فى الفرنسية (Comarades) الدكتور زيادة .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٣

المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة " . والواقع أن الملك المنصور كان مستهترا بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه فى إدارة شئون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع فى الوصول إلى سلطنة مصر ، فانتهز فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله "إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدد فالأمر لكم . أقيموا فى السلطنة من شئتم[1] " .

٢ — ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية

ذكرنا أن المماليك البحرية فروا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية فى ذلك الوقت كما كانوا يتنقلون بسرعة من بلد إلى آخر، ذلك أن هولاكو على أثر سقوط بغداد فى يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب، ثم زحف على حران واستولى عليها ، وأرسل ابنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج اليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل بن أخيه الملك الناصر؛ فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب[2] .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار فى الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما نجدة؛ وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاكو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظى بمداراته والدخول فى طاعته . وهنا نجد موقفا مشرفا لبيبرس

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧ — ٤١٨

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠

إذ أنه ما كاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقض عليه وضربه وقال "أنتم سبب هلاك المسلمين" فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففر إلى قلعة دمشق، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج؛ فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر[1].

انتهز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل اليه علاء الدين طيبرس الوزيرى يطلب منه الأمان، فكتب اليه قطز بأن يفد اليه ووعده بالوعود الجميلة[2].

وصل بيبرس مصر فى ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ . فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها[3] وجعله قائد جيشه . وسنرى ما فعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

فى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم اليه والإذعان له . وقبل أن نتكلم عما فعله سلطان مصر إزاء رسل هولاكو نذكر هنا خطاب هذا الطاغية لنرى منه كيف كان تجبر هؤلاء المغيرين واعتزازهم بقوتهم ووفرة عددهم وزهوهم بأنفسهم حتى احتقروا من عداهم من الأمم وظنوا أنهم مانعتهم أسلحتهم وجيوشهم ولم يقدروا هزيمتهم فى أية معركة لهم وغاب عنهم أن الدهر قلب[4] . واليك نص كتاب هولاكو كما ذكره كل من القلقشندى والمقريزى[5] : "من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ — ٤٢٠

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ (٣) ابن واصل : ج ٢ ص ٣٩٤ أ؛ أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦ (٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣

(٥) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ — ٤٢٨

هربوا من سيوفنا إلى هـذا الاقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسـلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولهـا من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنـا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأى أرض تؤويكم، وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فمـا لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنـا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لاتمنع والعساكر لقتالنا لاتنفع ودعاؤكم علينا لايسمع ... إلى أن يقول " أسرعوا بردّ الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا وتدهون منـا بأعظم داهيـة ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فمـا بقى لنـا مقصد سواكم . والسـلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى " .

لمـا وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم فى الأمر — وقد أحدق بهم الخطر وتهدّدهم هؤلاء التتار؛ فتردّد بعض الأمراء أوّل الأمر فى الخروج لملاقاة هـذا العدوّ العنيد ومنازلته وذلك خشية منه ؛ وقرّ رأى قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رءوسهم على باب زويلة[(١)] .

ولمـا كان يوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج قطز بعسكر مصر ومن انضم اليهـم من عسكر الشام والعـرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبـل

(١) المقـريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

قاصدين الصالحية؛ ولما بلغوها طلب قطز الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا. فقال لهم "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين"[1] .

كان لهذا القول أثر فى نفوس أمراء المماليك الذين امتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار، فلم يكد قطز ينتهى من حديثه حتى اتفقوا جميعا على مهاجمة هذا العدو وإيقافه عند حده .

لم يدخل قطز فى مخابرات مع العدو بشأن إبرام الصلح خشية أن ينضم ضعاف القلوب من أمرائه إلى المغول، ولكنه أراد أن يقيم الدليل لهم بأنه يستطيع أن يقود جيشا قويا متحدا إلى الحدود . وقد تبددت سحب الإشاعات وزادت الحماسة حينما هزم المماليك بقيادة بيبرس حامية المغول فى غزة؛ ومن ثم واصل الجيش المصرى السير محاذيا الساحل نحو الشمال وضمن حياد الفرنجة فى عكاء، ثم يمم السير لملاقاة المغول فقابلوهم قريبا من بيسان فى المكان المعروف «بعين جالوت»[2] حيث مزق الجيش المغولى شمل قوى المصريين؛ على أن هرب المصريين قد أدى إلى انتصارهم بسبب تعقب المغول للفالة منهم فى شراذم متفرقة مما سهل على جيش المماليك القضاء عليهم . وقد وقع القائد المغولى « كتبغا » صريعا فى حومة القتال وارتد جيشه الذى انضمت اليه حامية دمشق التى ثار أهلوها وذبحوا المسيحيين لتآمرهم على زوال الإسلام .

أعاد قطز الأمن الى نصابه فى جميع المدن المخربة ، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماه على أن يدفعوا له الجزية ، وأقيمت الخطبة له فى البلاد التى بين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩

(٢) بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان .

حلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التى نجت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذى طالما تعرض له قواد الجيش المنتصرون . وكان بيبرس أقدر هؤلاء القواد وقد حال قطز دون تحقيق رغبته فى ولاية[١] حلب — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ[٢]، فكان ذلك الخلف مثيرا لمكامن الضغينة والحقد اللذين كمنا فى نفوس بيبرس و إخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاى[٣] ؛ فأضمروا السوء له وحدث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان[٤] .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبرس ولاية حلب ؛ فانه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له فى سلطنة مصر . لكنه لم يتريث فى هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبرس . غير أنه نسى أن المركز الذى كان يتمتع به بيبرس فى ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول و إخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدى بنى أيوب لايقلل من شأنه حرمانه من احدى الولايات وخاصة اذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطر أخيرا الى مصافاتهم والاعتماد عليهم فى صدّ ذلك العدو الخطير الذى اجتاح البلاد الاسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التى اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به فى هوّة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقترب اليه المماليك البحرية و يقطعهم الاقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية وبذلك يتقى شرهم ويأمن جانبهم .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.262.

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٨٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٥

ولا ضير اذا قلنا إن هؤلاء المماليك البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الحفاوة والاكرام و إنزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم الى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف، وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه الى مصر حتى اذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبي التتار، فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم وثأر أعداؤه لأنفسهم و بعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم الى أن وصلوا الى عرش الملك فجلس عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة (٢) على ما سيأتى .

---

(١) أبوا الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

---

١ — اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

(ا) القضاء على الفتن والثورات .

(ب) إحياء الخلافة العباسية .

٢ — سياسة بيبرس الخارجية :

(ا) موقف بيبرس إزاء الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام .

(ى) علاقة بيبرس بالمغول .

(ه) علاقة بيبرس بأرمينية .

(و) سياسة بيبرس إزاء ملوك أوربا .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة وبيبرس .

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ — اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وتقدّم اليه فارس الدين أقطاى المستعرب و بايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء؛ وذلك قرب الصالحية قبل وصولهم الى القاهرة[١] . فلما تمت البيعة قال له أقطاى : لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك الى قلعة الجبل . فركب ومعه الأمير قلاوون وبلبان الرشيدى و جماعة آخرون فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة — وكان خارجا لمقابلة قطز — فأخبره هؤلاء بما حدث؛ فبايع بيبرس وقدّم له فروض الطاعة ثم تقدّمهم الى القلعة و وقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا . وكانت القاهرة قد زينت لقدوم قطز فرحا به وسرورا لما فعله بالتتار واستبشارا بقدومه اليها ، واستمرت تلك الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق النـاس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفا من ظلم المماليك البحرية ومعاودتهم ما كانوا عليه منا لجور والفساد[٢] .

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ماتلقب به أحد فأفلح ، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر[٣] .

---

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ (٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٦٥ — ٦٧؛ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٦ — ٤٣٧ (٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٦ أ .

أخذ بيبرس بعـد تربعه على دست الملك يطمح الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين من توسيع نطاق الامبراطورية المصرية، والى اعلان الحرب على الصليبيين الذين كانوا لايزالون يغيرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وسنرى أنه بذل جهده فى استئصال شأفتهم من هذه البلاد وان كانت لم تحقق كل أغراضه ، اذ لم يمهله الزمان حتى يرى المدن الساحلية خالية من النواقيس والصلبان .

وكان همـه موجها بنوع خاص الى ردّ غارات المغـول الذين كانوا قد ثبتوا قدمهم فى فارس وأسسوا لهم أسرة ملكيـة تسمى أسرة «الايلخانات» أو الأسرة الهولاكية ، وكذلك محاربة الصليبيين الذين اتفقوا مع التتار ضدّ الولايات الباقية فى أيدى الخلافة العباسية.(١) ولذا نراه بعد أن دخل القلعة واجتمع حوله الأمراء وكبار رجال الدولة يأخذ فى منحهم الألقاب وتوليتهم المناصب العاليـة و إغداق نعمـه عليهم بالاقطاعات الواسعة ليشتدّ بهم أزره ويقوى بهم ساعده . ولم يكتف بولاء الأمراء له بل أراد أن يكسب عطف الرعية ومحبـة الشعب وميل النفوس النافرة اليه فأخذ فى ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها؛ فعين فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا للعسكر واستناب عنه فى السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار وفوّض إليه جميع أمور الدولة وصار صاحب الحل والعقـد بهـا وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر وعزل الصـاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا .(٢)

أراد بيبرس أن يستجلب رضى الرعية عنه ويبث فى نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه وتناسى ماقدّمت يداه من السيئات؛ فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 264.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

والضرائب[1] . فاطمأنت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشربوا محبته في قلوبهم ؛ ثم جدّ في إحضار المماليك البحرية الذين كانوا متفرقين في البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاي . وبذلك تلافى بطشهم بالأهالي بجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشيء الكثير .

كذلك أرسل بيبرس الى سائر النواب والأمراء في مصر والشام يعلمهم باعتلائه عرش البلاد المصرية ؛ فأجابوه بالطاعة والاذعان في سائر النواحي سوى بعض الأمراء في بعض الجهات الشامية فانه عظم عليهم تولية الظاهر وامتنعوا عن الاعتراف به سلطانا واستقلوا ببلادهم[2] مما حدا بالظاهر إلى محاربتهم حتى ينضووا تحت لوائه قبل أن يتفرغ لشئون بلاده الخارجية .

(١) الشورات الداخلية :

لم يصف الجو تماما لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين علم الدين سنجر الحلبي الذى استنابه الملك المظفر قطز بدمشق[3] . فقد نادى بنفسه سلطانا عليها في ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حماه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص ليدخلا في طاعته ، فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشا مع علاء الدين أيدكين البندقدارى لمحاربته ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق في صفر سنة ٦٥٩ هـ ، والتق

(١) كان قطز قد أثقل كاهل أهالى مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث الترك ، كما فرض دينارا على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة . مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 14.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨

بجيش الحلبي بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جنّ الليل خرج لا يلوى على شيء قاصدا بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها[١]، وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحبا حماه وحمص إلى بلديهما . ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة فى حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابرها[٢] .

أما عن ولاية حلب فان قطز كان قد ولى عليها عند عودته الى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، غير أن السعيد سار فى حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم وعند ما بلغه مسير التتار إلى البيرة[٣] فى أواخر سنة ٦٥٨ هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند، ولم يقبل نصيحة أحد فى منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقاة التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب من البيرة، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذى ابتزه من الأهالى ظلما، ويقدّره المؤرخون بخمسين ألفا من الدنانير[٤] .

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقر حسام الدين بها . غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماه؛ وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظنّ فى أول الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به؛ غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص — وكان التتار فى هذه الأثناء قد انقضوا على حماه — فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص فى المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار، فالتقوا

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ (٣) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ؛ المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٧٠

بهم بظاهر حمص وقاتلوهم وتمت النصرة للسلمين[1] وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون ؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق حتى انتهت ثورة سنجر . أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها واستقر مكانه فخر الدين الحمصى نائبا من قبل الملك الظاهر .

بعد أن استقر علاء الدين البندقدارى بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة من المماليك الذين كان يتوهم منافستهم له فى الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرفى وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما[2] . وكان الأخير واليا على نابلس وغزة و بلاد الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين لمحاربة سنجر بدمشق . ولما قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين وفروا إلى دمشق ليلا، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الانضمام إليه ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور فى ذلك فأغلظ له فى الرد؛ فمضى مغضبا نحو حلب وبها فخر الدين الحمصى الذى أرسله علاء الدين لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه فى المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه بهذه الأطراف تحت طاعته؛ فاغتر فخر الدين بقوله وسار نحو الظاهر . ولم تمض مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على ما بها من الأموال وجمع حوله العرب والتركمان واستعد للقتال . وسار جيش مصر قاصدا الشام لمحاربته بقيادة جمال الدين المحمودى وعلم الظاهر بمسير فخر الدين إليه فوبخه على تركه حلب ورده مع الجيش وعفا عن سنجر الحلبى وسيره هو أيضا لمحاربة البرلى ؛ فسار الجميع إلى حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة ولما لم يجد بيده غيرها أعلن ولاءه

---

(١) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٧٥ ؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠

للملك الظاهر واستأذنه فى القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته، ثم غادرها ثانيا إلى البيرة ؛ ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه سنة ٦٦١ هـ .[1]

وفى هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين . وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم جندا له ووجههم للاغارة على الشوبك ومما يليها من الولايات التى دخلت فى حوزة الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد، فهم الظاهر بالذهاب إلى الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ؛ فأمنهم واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم[2] . غير أن بيبرس لم يأمن بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته — فغادر مصر فى ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة فى ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها فى العودة ثم استدعى المغيث فقدم إليه بعد تردّد وتقابلا فى بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده له وتأمينه كما أنه تناسى استعطافه والعفو عنه فقبض عليه و بعثه إلى القاهرة مقيدا؛ فظل معتقلا بقلعة الجبل حتى قتل[3] .

وقد يكون للظاهر فى قتله بعض العذر إن صح ما يرويه المؤرخون عن هذه الحادثة ؛ فقد ذكر أبو الفدا[4] أن المغيث كان قد راود امرأة الظاهر عن نفسها حين فر بيبرس منه إلى غزة وقدم إلى مصر وترك زوجته بالكرك فى عهد سلطنة قطز كما تقدّم . وهذه الحادثة إن صحت تحفظ القلوب وتنسى معها العهود والمواثيق .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤ (٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٨٤ (٣) المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ و ٢٣١
(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٦

لذا نرى الظاهر يضمر السوء للمغيث ويتظاهر له بلين القول وزخرف الحديث حتى تمكن منه . وهناك أمر آخر يجيز للظاهر فعله مع المغيث . فقد روى كل من أبي الفدا والمفضل والمقريزى[1] أن الظاهر بعد أن قبض على المغيث أحضر الملوك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان والشهود ورسل الفرنجة وأظهر لهم فتاوى الفقهاء بقتله وأحضر السفراء الذين كانوا بينه وبين هولاكو وقرئت الكتب المذكورة عليهم[2]، وانفض الجمع وكتب السلطان إلى من بالكرك يحذرهم ويتوعدهم وسير إليهم بدر الدين بيسرى وعز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال . وهذه الرواية تفيد أن المغيث كان متواطئا مع التتار متصلا بهم اتصالا سريا بالمكاتبات والرسل مما قوى الشبهة فى اتهامه لدى الظاهر ، كما أن هناك سببا آخر دعا بيبرس الى الغدر به وهو أن أحد رسل التتار كان قد قدم إلى المغيث ليقف على أخبار الملك الظاهر، فلما علم بذلك بيبرس بعث بمن يحضره إليه فأنكره المغيث أولا ثم اضطر إلى إرساله[3] . ومن هذا نفهم أيضا أن استعطاف المغيث للظاهر وطلبه الأمان ما كان إلا خوفا من قوته وسطوته بينما هو يدبر المكايد له بمناصرة أعدائه والانضمام إليهم ولو من طرف خفى .

وبعد أن اعتقل المغيث أرسل الملك الظاهر واليا على الكرك وأمن أهلها ورتب أمورها وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها ؛ ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص — وكان

---

(١) المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٧ ؛ النهج السديد ص ١٠٩ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٢

(٢) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب فى أخبار بنى أيوب ص ٤١٣ ب ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١ ، أن هذه الكتب تتضمن شكر هولاكو للملك المغيث ووعده إياه باقطاعه البلاد من بصرى إلى غزة ، وبارسال عشرين ألف فارس لفتح مصر .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١

ملكلها وراثيا لآبائه من أيام الملك العادل نور الدين ، ولم تزل متوارثة فيهم الى أن مات الأشرف سنة ٦٦١ هـ — وبموته آلت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بنى أيوب[(١)] .

(ب) إحياء الخلافة العباسية :

تولى الظاهر عرش مصر فى وقت كانت البلاد فيه مفككة العرى مفصومة الوحدة والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحى . فمصر تتنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها واستبداد الأمراء من المماليك بالأمر فيها وتطلع الأيوبيين بالشام اليها وتهديد التتار لها ؛ والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها فى أيدى الأيوبيين ، والصليبيون يحتلون سواحلها ، والتتار قد أغاروا عليها واحتلوا جزءا عظيما منها بعد أن تم لهم الاستيلاء على جزء كبير من البلاد الشرقية من أقاصى بلاد ما وراء النهر الى حوض دجلة والفرات .

ولما أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد فى ٣ يناير سنة ١٢٥٨ م، ودحر جيوش الخليفة ولم يبق فى طريقه الى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة نفسه بعد أن وعده هولاكو بالأمان؛ ثم لم يلبث أن قتل[(٢)] بعد أيام قلائل هو وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن[(٣)] . وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الاسلامية من الخلافة وليس من أمراء المسلمين من يجرؤ على إعادة الخلافة الى سابق عهدها .

حقا لقد شغل كل أمير إسلامى بالعمل على بقاء سلطته فى دويلته التى أمر عليها أو مقاطعته التى ملكها وليس له وراء ذلك غاية أو مأرب إلا أن يكون رغبته

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٨٥

(٢) تختلف الروايات فى كيفية قتل الخليفة المستعصم وفى هـذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقيل إنه خنق وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات وقيل غرق فى الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٣) Browne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463.

فى اتساع منطقته أو ازدياد نفوذه فى بعض النواحى الأخرى . ولم يفكر أحد فى إعادة الخلافة سيرتها الأولى ؛ فظل منصبها شاغرا حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

أخذ بيبرس فى السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية الى مكانتها بعد أن قضى عليها هولاكو فى بغداد . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك الى أن يقوى عرشه فى مصر ضد أحقاد نظرائه من المماليك ويجعل حكمه شرعيا فى البلاد . ويعزو السير وليم ميور(١) سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية بمصر الى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأى بعيد عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده فى المصادر العربية والافرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامراة التى دبرت سنة ١١٩٤م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر(٢) لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعل السير وليم ميور اعتقد أن طائفة الاسماعيلية التى كانت تقطن سورية فى ذلك الوقت والتى كانت على عداء مع بيبرس ربما تفكر فى إرجاع الخلافة الفاطمية ؛ ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا فى إرجاع الخلافة للفاطميين، و لم نسمع أنهم اشتركوا فى المؤامرات التى دبرها شيعة مصر لاعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أوّل من فكر فى إحياء الخلافة العباسية بل سبقه الى التفكير فى ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذى ما كاد يعلم من

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) اشترك فى هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الاسماعيلية وملك صقلية وعمورى ملك بيت المقدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

الأمير عيسى بن مهنا أن أميرا عباسيا (١) قدم الى دمشق حتى أرسل يستدعيه اليه؛ غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية الى عيسى بن مهنا . وعند ما قدم الملك المظفر قطز الى دمشق على أثر انتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسى . فقال له "اذا رجعنا الى مصر أنفذه الينا لنعيده إن شاء الله" (٢). ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى الى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين؛ غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة (٣).

مما تقدّم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين فى ذلك الوقت كانوا يميلون الى إحياء الخلافة العباسية؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع فى تنفيذ ما فكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكى يعزز زعامته للاسلام . وقد تحققت آماله فى إحياء الخلافة عندما ورد اليه كتاب من الأمير علاء الدين طيبرس والأمير علاء الدين البندقدارى يتضمن أن رجلا وصل الى دمشق يدّعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة؛ فكتب اليهما السلطان يوصيهما به خيرا و يكلفهما بأن يعينا من يقوم فى خدمته و يرسلا معه حجابا الى مصر (٤) وأعدّ العدّة لاستقباله . وعند ما علم بمجيئه طار الى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين ابن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر؛ واليهود يحملون

---

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبى على الحسن القبى بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجه ثم ذهب الى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ (٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣

(٣) ذكر السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق و زاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار فى جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار وانتصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب الى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب الى مصر لما علم أن أميرا عباسيا آخر قدم اليها ورجع الى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلى . وسنرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذى استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .

(٤) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأوّل ص ١٨

التوراة والنصارى يحملون الإنجيل وساروا جميعا الى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بني العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا الى قلعة الجبل [١] . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيأ لهذا المركز ؛ إذ أبى حين وصوله الى القلعة أن يتقدّم الإمام أحمد فى الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا فى مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسى معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلسا فى قاعة الأعمدة دعا اليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام [٢] ، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهده العربان الذين قدموا الى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدى هذا الإمام العباسى واستدعى العُربان الذين قدموا معه من بغداد ، فأقروا جميعا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضا بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه و بايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر و بايعه " على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها " [٣] وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة فى مصر باسميهما ، وكذا أمر

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحيانا على كبار العلماء . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٦ ص ٩

(٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأوّل ص ١٨ — ١٩ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ — ٤٥٠

بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له فى خطبة الجمعة . ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ؛ فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى ردّ الخلافة لبنى العباس [(١)] .

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصا عند شروعه فى مبايعة الأمير العباسى الذى قدم إليه ؛ فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بنى العباس بخلاف الملك المظفر قطز الذى ما كاد يعلم أن أميرا عباسيا وصل إلى دمشق حتى سارع إليه و بايعه بالخلافة .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون فى نسبة هذا الخليفة إلى العباسيين . و يتضح لنا ذلك من عبارة أبى الفدا [(٢)] فى هذا الصدد ونصها : "وفى هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر" ثم يقول فى موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار "و برز الملك الظاهر والخليفة الأسود ... ... وتوجها إلى دمشق" . كذلك نجد مفضل بن أبى الفضائل [(٣)] يسمى هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود .

ولعل الشك الذى يبدو فى عبارة هذين المؤرخين من حيث صحة نسب هذا الامام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، ولكن سواد اللون لا يمنع صحة النسب ؛ فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلا أسمر اللون . و يستدل على ذلك بما رواه لنا بن إياس [(٤)] حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠١

(٢) المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٣

(٣) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

(٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠٠

أما النويرى[١]، والمقريزى[٢]، وأبو المحاسن[٣] فلم يظهر لنا من كلامهم عن هذا الخليفة ما يشعرنا بأنهم كانوا يشكون فى صحة نسبه، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخليفة ينتمى حقيقة إلى بنى العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله بن العباس الهاشمى .

وتنفيذا لرغبة الملك الظاهر فى تقوية عرشه ضدّ مناوئيه من أمراء المماليك وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسى له بالسلطة . فخرج فى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضى فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر .

وقد أورد لنا النويرى[٤]، والمقريزى[٥]، وأبو المحاسن[٦] صورة هذا التفويض نقتطف منه ما يلى :

" بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملابس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف... وبعد، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدّما ... وما بدت يد من المكرُمات إلا كان لها زندا ومعصما ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأوّل ص ١٨ — ٢٠
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥١
(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ أ
(٤) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ - ٢٨
(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٣ — ٤٥٧
(٦) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٨ أ — ١٨٨ ب .

الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ... وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع و يعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها و رعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ... وأبسط يدك بالاحسان والعدل ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيبا ... وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ... ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيئ السنن وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن ... وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملك الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ... ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ... و بك يرجى أن يرجع مقر الخلافة الى ما كان عليه فى الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ... وشيد منها كل ما غادره العدو منهدما ... وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ... وكذلك أمر الأسطول ... الى أن يقول : والله يمدك بأسباب نصره و يوزعك شكر نعمه فان النعمة ستتم بشكره " .

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهى (جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف) فلبسها وسار الموكب من باب النصر فى طريق مفروش بالبسط إلى القلعة وتقدّم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف[1] .

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعدّ العدّه لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد، فرتب له بعض الأمراء والعساكر وهيأ له كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل[2] . ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطرا عليه فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك[3] . فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة[4] . وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « ما معنا مرسوم بذلك » وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها الى عانة . وهناك تقابل بالأمير أبى العباس أحمد[5]، وكان معه سبعمائة فارس من التركمان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيرا هذا الأمير إلى الانضمام الى الخليفة بعد أن أمنه، ثم رحل

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 15-16

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16

(٤) تقع على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) كان صاحب حلب شمس الدين البرلى قد بايع هذا الأمير بالخلافة عند ما امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها، ولقبه بالحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم، ثم جهزه على رأس جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قابل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨

إلى الحديثة ففتحها من غير مقاومة، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه فظل محاصرا لها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى[(١)].

ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرابغا ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده فى تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ . ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله[(٢)].

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط، بل على ما أنفقه فى سبيل ذلك أيضا من الأموال الكثيرة والمعدات التى تفوق قيمتها وصف الواصفين[(٣)]. كما أنه رأى أن سياسته فى إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر فى الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التى تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها؛ ومن هنا نجد أنه يبعث فى طلب أمير عباسى آخر وهو أبو العباس أحمد[(٤)]. ولما قدم عليه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثانى ص ١٨٩ أ — ١٩٠ أ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٧

(٣) ذكر المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقه الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقدا و ٦٠٠٠٠ دينار عينا . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣١٧) فقال إنه صرف نحو مليون دينار ذهبا ومئة وستين ألف درهم .

(٤) ذكر أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة فى أواخر سنة ٦٦١ هـ .أما المفضل : النهج السديد ص ٩٢، المقريزى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ ؛ فيفهم من كلامهما أنه قدم إلى مصر سنة ٦٠٠ هـ، وأن الملك الظاهر أحتفل بلقائه وأنزله فى البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة فى أوائل سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التى لايشوبها غموض وتتفق مع مجرى الحوادث هى التى ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ وهى أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وانهزامه عند هيت على يد التتار، فكاتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدوم الأمير أبى العباس أحمد، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة، ثم قرئ نسبه بعد ما ثبتت صحته لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك[١]، ثم تلاه السلطان فبايعه " على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعله فى أمور الدين " . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده " أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه فى القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وعدق به صلاح الجمهور " . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[٢]؛ وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، غير أنه فى هذه المرة لم يكن هناك تفكير فى الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية[٣] .

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بمبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ، إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر — على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صفد — رجلين ادّعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم؛ أما الثانى فقال إنه من أولاد الخلفاء[٤]؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وفد إليها فى ذلك الوقت أيضا على بن الخليفة المستعصم[٥] . ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أمينا لإيوائهم . غير أننا لا ندرى ما الذى دفع الملك الظاهر

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٧ — ٤٧٩

(٣) Stanley Lane-Poole N. I p. 265.

(٤) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٤

إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد بايع قبل ذلك أميرا عباسيا بالخلافة . لعل السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة فى استمرار الخلافة العباسية بمصر . ويتبين لنا ذلك من عبارة النويرى (١) فى هذا الصدد . وهاك نصها " وفى شهر رمضان من سنة ٦٦٤ هـ وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك الذى كان عند هولاكو وصحبته جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين النجيبى فى أعز مكان . فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جلال الدين بن الدوادار والطواشى مختار فما عرفاه وظهر أنه بخلاف ما ادّعاه فسير إلى مصر تحت الاحتياط" . على أننا نرى أن هناك سببا آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته فى إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدّده كلما حدّثته نفسه بالتدخل فى شئون الدولة بخلعه ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التى كان يتمتع بها سلفه بجعله شخصا عاديا مراقبا سجينا فى القلعة (٢) .

ولا شك أن الرغبة الأكيدة التى جالت فى نفس الظاهر بيبرس والتى أراد أن يحققها من وراء عقد الخلافة الاسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر منها دينية وبعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامى الدين؛ فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل فى الرءوس مالا تعمله أساليب السياسة أيا كان نوعها ومالا تناله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء . ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد ما كان لهم من عز وجاه ؛ فإن ذلك كما يقوّض دعائم ملك التتار الذين استولوا على بغداد يهدم سلطة الظاهر فى مصر والشام ؛ وبيبرس لا يهدم سلطانه بيده .

وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت فى هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التى كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتتجلى لنا رغبة الشعب العامة فى إبراز فكرة الخلافة فيما يرويه بن إياس[(١)] عن بعض الشعراء حين بويع الخليفة بمصر :

يا أسَدَ الترك يا رُكْنهم * ويا آخذَ الثأر بعد المخافة
كَسَرْتَ الطُّغاةَ جَبَرْتَ العُفاةَ * قطعتَ الفراتَ وصلتَ الخلافة

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة فى المجلس الحافل بعظماء الرجال وكبار الدولة مثلا ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شئون الدولة والمالك لزمام الحكم فيها قد أبت نفسه أن ترتفع فى المجلس على منضدة أو أريكة فى حضرة أمير المؤمنين ليريهم أن هذه المنزلة لم يسم اليها إلا الخليفة. فكان ذلك أكبر عامل بعث فى نفوس الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية . هذا الى ما تنطوى عليه نفوسهم من إكبار فكرة الخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس فى البلاد المصرية والشامية أصبح فى غنية عن ظهور الخليفة فى المجتمعات العامة ، كما لم يصبح فى حاجة الى إسماع كلمته للشعب . لذلك نراه يزج به فى أعماق دار[(٢)] لا يصل اليه أحد من خواص الدولة ورجالات الشعب . ولعل السر فى إخفائه أنه خاف على نفسه من طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقيم مقامه الخليفة فتنتقل الى يده السلطة الزمنية أيضا . ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا الى إحياء الخلافة الاسلامية فحسب وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضا .

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٩٠ أ ؛ أن الملك الظاهر أنزل الخليفة الحاكم فى مناظر الكبش التى أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رتّب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وعائلته كما أمره أن يصعد القلعة فى أوّل كل شهر ليقدّم له فروض التهنئة .

٢ — سياسة بيبرس الخارجية

(ا) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على إحياء الامبراطورية الاسلامية ،لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم فى موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع فى القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠م. ويرجع ذلك الى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام الى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق[١] الناصر داود الأيوبى سلطانا عليهم[٢]؛ فكان لابد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

وقد نجح المماليك فى أيام الملك المظفر قطز فى إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس فى موقعة عين جالوت

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الاسلامية فى أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير فى تقدّم الصليبيين ، إذ حالفت مملكة دمشق الدولة الصليبية ببيت المقدس سنة ١١٣٩ م ضد أتابك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضح الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173.) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الاسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الاسلامية وقل الخطر الاسلامى الى حدّ ما ثم زاد و بلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 230) غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وشواهد ذلك واضحة ؛ فالهدنات التى عقدها العادل مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأمورهم والمعاهدة التى عقدها الكامل مع فردريك الثانى كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق . Stanley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226.

من هذا كله نرى أهمية انضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد فى مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

التي مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م[1]؛ وبذلك تهيأت الأسباب التي تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام . أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق ، فانه على الرغم من تطلع المسيحيين الى هذه القوة الناشئة لتساعدهم فى حروبهم ضدّ المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدّسة تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم فى بلاد الشام وتحالفه مع بركه خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين ايلخانات فارس قصيرا . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس الى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء الى سمعة المسيحيين فى غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم فى الدين فى دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع فى تلك المدّة القصيرة التى أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم[2] .

وقد عمل بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية فى الشرق (من سنة ١٢٦١ — ١٢٧١ م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس الى تلك الامارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية — التى أعلنت عطفها على المغول — وقيليقيا وجهات عكا[3] . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستخلص البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم .

وسنعرض لحروبه معهم والأسباب التى كانت تحمل الظاهر على غزوهم عدّة مرات فى مواقع متفرقة والتى جعلت منازلته لهم تستمر مدّة عشر سنوات تقريبا وفى كل موقعة ينتزع بلدا أو أكثر الى أن ألجأهم الى الانضواء فى صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين الى عهده . نعم كان بيبرس فى غزواته ضدّ الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

وينتقص مدنهم من أطرافها وإن كان قد لقى كثيرا من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتميم رغباته ؛ ومن ثم لم يهزم أمامهم أو يمتنع عليه أحد حصونهم.

على أن بيبرس لم يشرع فى تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة محالفات مع الدول المحيطة بمملكته؛ فتحالف مع بركه خان سلطان مغول القفجاق ضد خانات فارس وتبودلت بينهما البعوث بين سنة ١٢٦١ — ١٢٦٣ م، كما عقد محالفة دفاعية مع ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) امبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة محالفاته فأرسل بعثا الى منفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم[١] .

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسلهم اليه تطلب الصلح فأجابهم الى طلبهم[٢] . غير أن الفرنجة لم ينفذوا ماوعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم فى الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين فى بناء حصون دمشق .

ولما هدأ روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن فى استطاعته أن يزحف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر فى إغارته عليهم يرجع الى نقضهم العهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض المعاقل؛ فقام إظهارا لسخطه وغادر مصر الى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م[٣] حتى إذا توسطها جاءته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان اليهم؛ فكتب اليهم كتابا قال فيه "إن من يتولى أمرا فعليه باليقظة

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 265-266.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٣ — ٤٦٤

(٣) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 19.

ومن خفى عليه خروج هـذه العساكر وجَهِلَ ما عليه الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه من كثرتها التى لعـل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منـه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى موقان[1] من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها الى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأى شيء تعملون " . ولمـا رأى الظـاهر مراوغتهم وأنهـم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكاتبونه بندمهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم "ما تقولون"؟ . قالوا : "نتمسك بالهدنة التى بيننا" . فأجابهم بقوله " لم لا كان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان وانفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ونحن لمـا حضرنا الى هاهنا ماآذينـا لكم زرعا ولا غيره . وأنتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم الينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى الى نابلس ثم الى دمشق، وما سيرتم أنتم أحدا وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحدا ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا الى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ... ثم إنا سيرنا رسـلا الى [بلاد السلاجقة] الروم وكتبنا اليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر الى قبرس؛ فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم . هذا مع إحساننا الى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحـرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم". ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح اسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتى صفد والشقيف وأنهـم غدروا وناصروا لويس التـاسع وصحبوه الى مصر ... الى أن قال " وبالجـملة أنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح اسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها ... وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتهم فردّوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم

(١) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

فإنى لا أقبل غير ذلك" . فقالوا : "نحن ما ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى ... " فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طيبرس الى كنيسة الناصرة ، فسار اليها وهدمها ولم يلق من الفرنجة أى مقاومة (١) .

لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة ، بل جرد جيشا الى مدينة عكاء فاقتحم أبوابها ، ثم سار بنفسه اليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١ ﻫ (١٢٦٣م) . وكان الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول بالقرب من عكاء واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه .

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل ، بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق وسرعان ما انتهوا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ففروا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلأ الجو بالدخان . وحين دخل الصليبيون مدينة عكا ، أغلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها ، غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم فى الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلأت أيدى الجيش المصرى بالأسرى والغنائم (٢) . وهكذا ذاق الصليبيون وبال أمرهم ونالوا عاقبة غدرهم وعدوانهم على ما ليس لهم سلطان عليه من المدن والقرى .

وفى سنة ٦٦٣ ﻫ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار ، غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتدأ فى مهاجمة المدن اللاتينية (٣) ، فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East p. 338.

قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها. ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم فى هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حدّ هذه الهزيمة التى نزلت بهم فى قيسارية بل لم يكد ينته من هذه المعركة حتى أرسل جيشا إلى عثليث وحيفا أوقع التخريب فيهما، ثم حوّل وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبى قيسارية وشرع فى مهاجمتها؛ غير أن سكانها (الفرسان الهوسبتاليين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدّة أربعين يوما. وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الدينى بالغا أشدّه فى نفوس الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفى النهاية اضطر بيبرس للفاوضة مع الحامية وأمّنهم على حياتهم، ثم أكرههم على العمل فى تخريب حصونهم بأيديهم . وعند ما شرع فى العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصلبان مكسرة والأعلام منكسة[1] .

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض التى انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا فى صحيفة[2] أوردها كل من النويرى[3] والمقريزى[4] . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تنم عن الفخر والاعتزاز بالنفس، وأنه هو الذى وطد دعائم الدين الإسلامى بهزيمة أعدائه من التتار

(١) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 20.

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٣٨ — ١٣٩ و ١٤٤ ؛ أن الظاهر بعد أن قرر منح أمرائه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التى سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازندار وديوان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانيا ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدّموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى عزة وكتب إقرارا بتمليك هذه المنح للأمراء وافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٧٧ — ٢٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٠ — ٥٣٤

والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ما قام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التى جعلته يؤثرهم على نفسه و يمنحهم البلاد والضياع .

ما كان الظاهر ينازل الصليبيين و يتجشم المتاعب فى محاربتهم مضحيا بكل مالديه من عدّة وعدد فى سبيل الإيقاع بهم إلا لعـدم وفائهم وتعدّيهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع وتتابع إغاراتهم على ممتلكات سلطان مصر .

ففى سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص ؛ فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل ما لديه من الجنود[١] . ولما وصل إلى غزة سير جيشا إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ؛ فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فساروا على غرة من العـدو ونزلوا على حصن الاكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستولوا على بعض القلاع . أما بيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل؛ فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسـه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هـذا المكان المقدّس[٢] . ثم اتجه نحو مقصده فتقدّم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء فى عدّة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن ، ثم سار بنفسه إلى عكاء وأقام بها حتى قـدم اليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد[٣] . وهناك وافته الحملة التى سيرت لتخليص حمص بعد أن قامت بمهمتها[٤] .

تجمعت هذه القوى أمام صفد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشتغل بنفسه فى محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 21.

(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٣) كانت صفد فى ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية :
King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 260.

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٥ — ٥٤٦

يبذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى؛ وفى نفس الوقت منع شرب الخمر فى المعسكر، وشدّد العقوبة على من تحدّثه نفسه بالنهب أو باتلاف بالمزروعات[١] .

ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطا إلى ان ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة صفد بعد حصار دام ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصينا قويا وآضطر رئيس الداوية إلى التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكاء سالمين[٢] . فأمنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة[٣] .

على أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان[٤] ونكثوا العهد . فقد وجد بيبرس أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض الأسرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ مامعهم ثم ضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد . ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذى أسلم وظل فى خدمة بيبرس، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكاء ليخبر الفرنجة بما شاهده[٥] .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267

(٢) King: The Knights Hospitallers in Holy Land p. 261.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٠ ؛ وقد زاد على ذلك المفضل : كتاب النهج السديد ص ١٤٩ ، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم ، فان وجد مع أحد منهم شيئا مما منعهم فى أخذه انتقض العهد .

(٤) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٠ ، يفهم منها أن جنود حامية صفد الصليبين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان وإليك نصها (... حكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائى أن السلطان لم يحلف لأهل صفد وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التترى وأوقف الأمراء فى خدمته ، فحلف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذى لهم وكان نصرانيا ، فنزلوا على يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه اليمين فضربت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحوا من ألفى فارس) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٧ — ٥٤٨ ؛ هذا ، وقد كان الشخص الذى أسلم ودخل فى خدمة السلطان فارسا من الداوية . أما الثانى الذى ذهب الى عكا ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من فرسان الأسبتار King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

وهنا تبدو لنا صورة يراها المطلع فى ظاهرها غدرا ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تخرج عن كونها جزاء طبيعيا لمن حلت بهم . فلم يتعدّ بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدرا لو أنه قتلهم بعد التأمين فى وقت لم ينقضوا فيه عهدا . أما وهم قد نقضوا العهد فليس فعله اذن من الغدر أو الخيانة فى شيء . ولا معنى لحمل بعض المؤرّخين من أمثال Muir هذا العمل من بيبرس على الغدر والنكث . وفى ذلك يقول ميور(١) " إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقا آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لاتمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التى لصقت بانسانيتة بل بإيمانه " .

فهذا المؤرّخ أصدر حكما قاسيا على بيبرس تجلت فيه الأهواء والميول وكفانا ماللظاهر من صفات عالية وأخلاق فاضلة ووفاء بوعوده ، أنه لم يفعل مثل هذا بغير من حلت بهم ممن كانوا يطلبون الأمان فيؤتمنون وأمثلة ذلك كثيرة فى كل غزواته معهم .

تم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها ، غير أنه فى السنة التالية أعاد بناءها واشترك فى ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين نقتطف منها ما يأتى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدى الفرنج الملاعين وردّها إلى أيد المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أوّل مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوّض عن الكنائس

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 22.

بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرءوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين (١) ... .. " .

فما تقدّم نرى أن غزاوات بيبرس انقلبت منذ سنة ١٢٦٥ م إلى محاولات في سبيل التوسع والفتح . فاستولى على قيسارية وارسوف وسوّى بحصونها الأرض (٢)، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هونين (Chateauneuf) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة (٣) .

وعند ما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سيس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦ م علم أن سكان قرية «قارا» (٤) يتعدّون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويبيعون من تقع عليه أيديهم بيع الرقيق إلى الفرنجة بحصن عكاء (٥) . فلم ير الظاهر بدا أمام هذه الفظائع من الإغارة عليهم في عقر دارهم وضربهم ضربة شديدة، فأحرقت صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحوّلت كنيستهم إلى مسجد وأخذ شبانهم مماليك في أيدى المماليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية (٦) .

بعد أن استقرّ مقام الظاهر بمصر توجه في جماعة من أمرائه إلى بلاد الشام . فنزل غزة ورحل منها إلى صفد وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ — ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages p.267.

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حمص . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٢ — ٥٥٣

(٦) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم . فعاد ثانيا إلى صفد[1] ، ثم حاول أن يفاجئ عكاء بهجومه ؛ فسير فرقتين من الخيالة متخفيتين بأن ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن كشف أمرها ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة[2] .

ولما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية فى ذلك الوقت ترغب فى عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛ فعقد الصلح مع أميرة بيروت[3] ومدينة صور التى اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال[4] وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ، كما عقدت الهدنة بينه و بين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب[5] . وقد أسهب القلقشندى فى بيان هذه المهادنة[6] ونكتفى هنا بذكر بعض ماوقع عليه الصلح بين الطرفين لنتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولنتعرف أيضا حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه الهدنة على :

(١) أن يكون أمده عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدئ من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ ﻫ .

(٢) ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٨

(٢) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262

(٣) ذكر العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت الى الملك الظاهر وهو بصفد فى شعبان سنة ٦٦٥ ﻫ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين الى قبرس ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا اليه مال هؤلاء التجار و يطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٤) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التى أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد قتل بصور فقرر السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويرى ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٨

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٦) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١ — ٣٩

(٣) ألا يأخذ بيت الاسبتار الجزية التي كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماه وشيزر وأفامية وأبي قُبيس .

(٤) أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والجباية" نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاسبتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هي أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها في الأهمية يطول بنا المقام في ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيرا من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصليبيين .

وفي السنة التالية (٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م) وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضدّ بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكاء ظهر بغتة أمام يافا في ٧ مارس سنة ١٢٦٨ م — وكانت المعاهدة التي بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦ م ولم يجدّدها مع ابنه (Guy d'Ibelin)(١) — فانقض عليها من غير سابق انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها(٢) . ثم سار السلطان شمالا قاصدا الشقيف أرنون التي كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصينا قويا ، فلم يستطع الوصول إليها إلا في ٦ أبريل من السنة المذكورة ، واستخدم في هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة أيام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها(٣) .

(١) ذكر النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عندما قدم إلى صفد لبناء قلعتها وفد عليه مقدّم يافا وطلب منه أن يجدّد عقد الهدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

(٢) زاد العيني (عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا لجأ أهلها الى القلعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وتسلم القلعة منهم .

(٣) ذكر المفضل (النهج السديد ص ١٦٤ — ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتتلخص في أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من الفرنجة المقيمين بعكاء يتضمن إفادة النواب =

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية ؛ فسار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها، ولم يستطع الأمير بيموند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة،(١) ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاه صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فلم يتعرض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماه؛ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه،(٢) وبدأ يهاجمها فى أوائل مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ)، واقتتل الفريقان قتالا شديدا أسر أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس فى ذلك الوقت يرغب فى عقد الصلح لوقف تيار القتال حقنا للدماء التى تراق، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذى أسره فى أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة ؛ غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بدا من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها فى وجه السكان ، وانقض عليهم ذبحا وقتلا وأسرا . وكان عددهم نيفا ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس .(٣)

وحين رأى رجال الحامية — وكان عددهم ثمانية آلاف — أن المدينة وقعت فى أيدى المسلمين، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها فى اليوم التالى على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام .(٤)

= بالشقيفين أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتابا يذكر فيه أمارات بينه وبين أهل عكاء ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسماؤهم فى الكتاب ، كما أرسل كتابا آخر للوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره ويه بأنه إن احتاج إلى مال يأخذه من ملك ذكر اسمه فى الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه الكتب وقع الخلاف بينهم فى الوقت الذى كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف .

(١) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٢) المقريزى . السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

(٤) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263.

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذى أنزله بالمدينة بل أسر حامية القلعة[١] ووزع أفرادها على الأمراء[٢] . ثم أرسل إلى بيمند — وكان إذ ذاك بطرابلس — رسالة تهكم يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات التقريع والسخرية . وقد أوردها كل من النويرى[٣]، والمفضل[٤]، والعينى[٥] . وسنكتفى بذكر بعض فقراتها لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضرغام بيمند فخر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر والأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض ... وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأول وتملكت الحرائر... وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والمواشى، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب ... وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ... وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى لدينا جارية ... وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم . رحلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا

---

(١) يفهم من عبارة النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد، والمفضل : كتاب النهج السديد ص ١٧١ — ١٧٢ ، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن يأخذهم أسرى . واليك نص عبارة النويرى "...وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد فتحاشروا بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة ؛ فاستغاثوا للسلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى" .

أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافا كبيرا فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويرى، لذلك نكتفى بالإشارة إليها .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ — ٣١١

(٤) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ — ١٧١

(٥) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ — ٥٤٢

بأنطاكية فى مستهل رمضان. وفى حالة النزول خرجت عساكرك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل فى مراجعة أقرانك ودخل إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدّثوا معنا فرأيناهم إلى رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ... فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدّر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر ... فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ... وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب خبرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبرا .

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير بدرالدين بيسرى الشمسى، ثم أمر باحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه.(١) وعلى أثر انتهائه من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة؛ وبذلك تركها أثرا بعد عين .(٢)

هزت كارثة أنطاكية جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا الحصن خاليا، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها، ثم أعدّها بالعدّة والرجال، وأصبحت منذ ذلك الوقت فى عداد الحصون الإسلامية.(٣) كذلك هال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا فى موادعة الظاهر كيلا ينالهم ما نال إخوانهم؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضة فى الصلح، وبدأت المفاوضة فعلا؛ ورافق بيبرس سفراءه فى زى خادم ليتعرّف خباياها ويدرسها تمهيدا لمحاصرتها فيما بعد، وكذلك عكاء — وهى البقية الباقية من دولة

---

(١) زاد على ذلك العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩، فقال إن ما خص بيبرس من غنائم أنطاكية أرصده لعمارة الجامع الذى أنشأه بالحسينية بالقاهرة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ ص ٥

بيت المقدس — طلبت المفاوضة والصلح[١] فقدمت رسل صاحبها إلى السلطان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه فى هذا الأمر[٢] . فتقرر عقد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكاء مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيداء على حالها . غير أن هذه المواد عند ما عرضت بعكاء لإقرارها لم تصادف قبولا[٣] .

أما بلاد صور فقد أغار عليها بيبرس قبل أن يعود إلى مصر فى أواخر يولية سنة ١٢٦٨ م[٤] . وعلى الرغم من أنه كان من سياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية ، فان البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادنة . وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى فى ربيع سنة ١٢٦٩ م على أراضى عكاء وصور ، وساهم بيبرس بنفسه فى هذه الحركات وتهادن مع بيروت وما جاورها من البلاد[٥] .

لم تفتر همة بيبرس الحربية عن مناوأة الصليبيين ، فكان يستولى على معاقلهم الواحد بعد الآخر رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا[٦] . وكان السلطان ينظر دائما إلى بوهمند السادس كأكبر خصم له . والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين ؛ فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمد إلى إتمام إسقاطه بالاستيلاء

---

(١) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p.269.

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤

(٣) يفهم مما ذكره المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧١ فى هذا الصدد أن السلطان أرسل إلى صاحب عكاء محيى الدين بن عبدالظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكاء على هذه المعاهدة وكان معهما هدية فيها عشرون نفسا من أسرى أنطاكية ، فلم يوافق على بعض موادها .

(٤) أورد العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠ ، السبب الذى من أجله أغار بيبرس على مدينة صور ، فقال إنه عند ما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءته امرأة فى أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنها لما دخل صور غدر به صاحبها وأخذ ماله ، فركب السلطان وشنّ الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة .

(٥) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 342.

(٦) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

على طرابلس. وكان من الضرورى قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية، لذلك شرع فى الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ فى محاصرته فى شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١ م)، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها فى ٣٠ مارس من السنة المذكورة، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة ؛ فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم .

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية بحياتهم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة ؛ فلم ير المسلمون بدا من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملجأ الأخير لهؤلاء الفرسان، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة . لذلك أرسل إلى الحامية خطابا مزورا[(١)] على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوستباليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن. وكان من أثر ذلك أن فتح الهوستباليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم . وفى اليوم التالى ساروا إلى طرابلس[(٢)] .

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار[(٣)] — وهو صاحب حصن الأكراد — كتابا[(٤)] هذا نصه : " إلى (افرير أوك) جعله الله ممن لا يعترض

(١) ليس هناك فى المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطابا مزورا لحامية حصن الأكراد. ونحن نستبعد ذلك على بيبرس . ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقية لأشار إليها Stevenson, Muir لا سيما وأن Muir خاصة كثيرا ما يحى باللائمة على بيبرس فى بعض مواقفه. وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سلموا القلعة وطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس .

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار فى هذه السنة Hugh Revel. ؛ King: Op. Cit p. 271

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٦٣

على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا نعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته و بنيته وخليتــه وكنت الموفق لو أخليته واتكلت فى حفظه على اخوتك فمــا نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيدا وتشقى " .

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح والاستكانة خير ما تستطيع أن تكسب . فلم يكد بيــبرس ينتهى من حصن الأكراد حتى ســارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح و بعث مفاتيح حصنه إلى السلطان، فصالحه على أن يرسل اليه نصف ما يتحصل من غلال بلاده. وعين واليــا من قبله على هــذه البلاد. كذلك قدمت اليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس، وقرر أن تكون الهدنة بينه و بينهم لمدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام [(١)] .

ولمــا تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكــراد رحل الى حصــن عكار [(٢)]، و بدأ هجومه عليــه فى ١٧ رمضانــ سنة ٦٦٩ هـ (٢٩ إبريل ســنة ١٢٧١ م) وشدّدت عساكره الحصار . وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان ؛ فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حيــاتهم [(٣)] . و بذلك تمكن من الاستيلاء على هــذا الحصن ثم اســتعدّ ليهاجم طرابلس بنفسه . ولكن أخبار

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالى طرابلس وهو مبنى على جبل بنفس الاسم .

Le Strange: Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧

قدوم الأمير ادوارد[١] و بعض الصليبيين الى عكاء فى ٩ مايو سنة ١٢٧١م جعلته يرضى بعقد الصلح[٢] .

على أن بيبرس قد شرع فعلا فى مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكره بها وشددت الحصار عليها ، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يقول له : " ما مرادك أيها السلطان فى هذه الأرض ؟ " . فقال : " جئت لأرعى زرعكم وأخرب بلادكم ثم أعود الى حصاركم فى العام الآتى " . فأرسل اليه أمير طرابلس يستعطفه و يطلب منه عقد الصلح[٣] ، فسير اليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار بمقترحات لعقد الصلح ، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال وقال للأميرين : " إن السلطان لما أخذ أنطاكية منى بالسيف كان عذرى مبسوطا عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب (كذا فى الأصل) منى أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجبه خوفا من الفرنج أن يعيرونى بتسليمى البلاد من غير حرب وقتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بى أن أسلم اليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج " . فعاد الأمير سيف الدين الى السلطان وأخبره بذلك . فرأى أن يعامله بالحسنى و يتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب و بانياس فتكون مناصفة بين

(١) هـذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على انجلترا باسم (Edward I) . وقد أبحر من Southampton فى أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبته ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مركبا ؛ فلما وصل إلى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر إلى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير ادوارد إلى قرطاجنة ووصل إلى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هـذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ، ثم أبحر فى الربيـع إلى عكاء . King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268.

(٢) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343 ; King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦

السلطان والداوية والاسبتارية؛ فرفض بوهمند أيضا هذه الشروط ، فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا ، فلم ير بوهمند السادس بدا من من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس الى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين ، وذكر له مافتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه . وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفرني عنه وتملأ قلوب عسكرى رعبا"(١) .

وهكذا تم للظاهر الكثير من رغباته ومآربه من الصليبيين الذين كان يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها الى حوزته . وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الجدية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . ففى أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصفد(٢) فسار منها إلى حصن القرين(٣) وهاجمه حتى استولى عليه فى ١٢ يونيه(٤) . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ — ١٩٥

(٢) مدينة فى جبال عاملة (وهى من جبال لبنان) المطلة على حمص . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يقع هـذا الحصن بالقرب من صـفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg
King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271
وقد ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ — ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم اليه رسولا صاحبي قبرس وطرابلس وتحدثا معه فى الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : " البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك فى هذا الحصن وسألك أن ترحل عنه " فقال السلطان : " كلامه عندى مقبول ، ولو جاءنى رسوله قبل نزولى عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكننى الرحيل عنه " . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرس فقال : " صاحبي سيرنى لأنظر إلى السلطان هل رحل أم لا ؛ فانه بلغه أن العساكر تقدمت إلى مصر " . فقال السلطان : "رحلت من عساكرى الأثقال والضعفاء ، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة نقضيها له فانه عندنا ضيف ؟ " فقال الرسول : "لم يأمرنى بشىء" . ثم مضى وعاد فقال : " حاجته عندك أن تدفع له بعلبك ونابلس " ، فقال له السلطان : " إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأول وتطلبوا منى حصونى ؟ " .

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, pp. 343-344.

المسلمين طلبوا الأمان فأمنهم السلطان وقرر خروجهم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحا[١]. ثم سار السلطان إلى أبواب عكاء، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت[٢].

وفى هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكاء وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندى؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه، فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للإستيلاء عليها؛ غير أن هذا الأسطول مالبث أن حطمته عاصفة عند شواطئها. وفى شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدّم الأمير إدوارد وهيو ملك قبرس إلى الناصرة، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين، غير أن أملهما هذا لم يتحقق، فانتهز إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر فى شهر يوليه من هذه السنة وأغار على الرملة واللد[٣].

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون فى عكاء بإغارة أخرى على البلاد المجاورة لقاقون (Kakun)[٤] عندما كان السلطان منشغلا بصدّ غارة التتار فى نوفمبر من السنة المذكورة؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسى فردّهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارسا[٥].

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس فى جهات عكاء وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الجديد من أوربا ولرغبته فى التفرغ لصدّ غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام. فاتفق مع رسل صاحب

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ — ورقة ٩٩

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٣٢

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن بفلسطين بالقرب من الرملة. ياقوت: معجم البلدان.

(٥) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٥

صور على تقسيم بلادها بينه وبين الفرنجة (١)، وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام (٢).

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان فى كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم ويهزم جيوشهم ويستولى على حصونهم ومدنهم واحدة تلو أخرى. ولم نرهم فى أية موقعة نالوا منه شيئا أو كتب لهم النصر عليه. وأسباب ذلك لا تخفى على الباحث إذا ما جال ببصره مدققا فى حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التى حلوا بها وقاتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم وبذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال. ومن أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم فى البلاد الشامية حتى آل أمرهم فى نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء فى حصن أو حصنين :

(أولا) كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم فى الدين متنافسين متحاسدين، قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع، وذلك مما كان يؤدى إلى فشلهم فى حروبهم.

(ثانيا) لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع ويدينون له بالطاعة، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذى من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائية عن أوطانهم (٣).

---

(١) وضح المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥ هذا الاتفاق فقال إنه تقرر أن يكون للفرنجة من بلاد صور عشرة بلاد ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم وبينه.

(٢) Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (Introduction) pp. XXX - XXXI.

(ثالثـا) كانت مصالحهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التى أتوا منها إلى تلك الديار. وقد تجلى هذا الأمر فى الفرسان المختلفين، وكثيرا ما كان يقاتل بعضهم بعضا[(١)]. وفى هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوّهم ما لا يخفى .

(رابعـا) نقض الصليبيين العهود التى كانت بينهم و بين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل .

(خامسا) محالفة الصليبيين لهولاكو زعيم التتـار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة المماليك فى مصر ومهاجمة بلادهم . وقـد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سببا فى تحالف الظاهر مع بركه خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية ، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد .

هـذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى فشل الصليبيين فى غزواتهم وهزيمتهم فى حروبهم . وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه . ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم، فكان الفشل المحتوم نصيبهم .

(ب) غزو جزيرة قبرس :

كان أهل قبرس كثيرا ما يمدّون الصليبيين ببلاد الشام بالمـال والرجال . ولا عجب فى ذلك فهم أهـل ملة واحدة يجمعهـم دين واحد . فليس غريبـا إذن أن يقوم هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم فى الدين، ولا سيما أنهم كانوا جميعا من الفرسان المتعصبين لدينهم المتحمسين ضدّ أعدائهم المسلمين . وكانوا لهم ردءا كلما داهمهم خطر من الأخطار، بل كانوا واسطة اتصال بينهم و بين مواطنيهم من أهل أوربا .

لذلك نرى بيبرس بعد إغارته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولا لمحاربة قبرس التى ساعدت عكاء مساعدة جدّية[(٢)] . وكان أهلها لمـا نزل السلطان على حصن

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (Introduction) p. XXIX

(٢) Sir William Muir, Op. Cit. p. 28.

الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة، فخرج إليهم فى عدّة مراكب، فهاج عليهم البحر وحطم ستين مركبا وتابع ما بقى منها السير إلى عكاء[١]؛ فأراد بيبرس أن يغتنم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى قبرس، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م)؛ غير أن عاصفة شديدة هبت عليها بالقرب من الجزيرة فحطمت منها أحد عشر مركبا عند ثغر النمسون (Limassol) . ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها من المسلمين[٢] .

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث لأسطوله، إذ قال له : "إن صاحبى يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك"، فقال السلطان : "قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيفى، ولو سلموا المراكب لأخذوا جزيرته بحول الله وقوته . وقد أخذت فى سفرتى هذه أربعة عشر حصنا . ولا شك أن العين لها حق والحمد لله الذى فدى عسكرى بالملاحين والعوام وأرجو من الله تعالى تعويض ذلك[٣]" .

لم يكتف بيبرس بما قاله لهذا الرسول، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتابا جاء فيه : "إلى حضرة الملك (أوك) ... ... جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن (الهواء) كسر عدّة من شوانينا ... ... ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩؛ العينى : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٥٦٤

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٠

هــو العجب ... ... وما النصر بالهواء مليح إنمـا النصر بالسيف هــو المليح ... ...
و إن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعنــدنا من بحرية المراكب ألوف ... ...
وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنـا الخيول ... ... فلئن كنتم أخذتم لنـا قرية
مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، و إن اسـتوليتم على سكان فكم أخلينـا
بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا فيرى أينا أغنم . ولو أن فى الملك سكوتا كان
الواجب عليه أنه سكت وما تكلم[1] " .

لم تفتر همة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله، بل شرع فى إنشاء أسطول آخر[2]
غير أنه لم يعاود الكرة فى مهاجمة جزيرة قبرس لانشغاله بمحاربة الصليبيين والمغول .
وقد تمكن فى سنة ٦٧٣ ﻫ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس ،
فأرسل الرسل إلى صور لا بتياعهم، فتغالى الفرنجة فى بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرماة
لطائفة منهم؛ فلم ير بيبرس بدا من إغراء الموكلين بحراستهم بالمـال فأطلقوا سراحهم
وساروا إلى القاهرة. فلما علم بذلك الفرنجة بعكاء قامت الفتنة بينهم[3] .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

كان يقطن ببلاد الشام فى الوقت الذى عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات
اللاتينية فى الشرق طائفة من الاسماعيلية[4] حاول صلاح الدين عبثا القضاء عليها وظلت

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ — ١٠١

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٥ (٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٤ ص ٦ (٤) الاسماعيلية هى فرقة من الشيعة عرفت أيضا بالسبعية لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عنـد الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سـنة ١٤٣ ﻫ فى حياة أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر والأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية ، فلمسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سـنة ٥١٨ ﻫ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم الحشاشين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، ثم تفرع من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب. Enc. Isl. Arts: Assassins و Ismailiya
وهذا الفرع الشامى هو الذى حوّل بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاته تمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون الى ممالأة هؤلاء الاسماعيلية[١]، وتعدّى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم ويعملون على اتقاء شرهم بالهدايا التى كانوا يرسلونها اليهم والتى رأى بيبرس أن يفرض رسوما عليها ليقلل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك[٢].

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت الى جانب الصليبيين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان الهوسبتاليين، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يمتنع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التى كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمراء حماه وشيزر وأفامية[٣]. وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزوّدة بالأموال التى كانوا يحملونها من قبل للفرنجة[٤].

ولما رأى نجم الدين الشعرانى صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التى يقدّمها لسلطان مصر كثيرة أرسل اليه يستأذنه فى إنقاصها. وكان بيبرس فى ذلك الوقت مستاءا منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية، فأمر بعزله هو وولده وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة[٥] بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف[٦] وبلادها خاصة بالسلطان؛ ثم أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير

---

(١) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٢) العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩؛ المقريزى: السلوك ص ٥٤٣

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262; Stevenson: The Crusaders in the East p. 340.

(٤) المقريزى: السلوك ص ٥٥٧

(٥) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام.

(٦) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام وهى واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من حمص. ياقوت: معجم البلدان Le Strange: Palestine under Moslems, p. 507

عز الدين العديمى فامتنع أهلها عن تسليمها أول الأمر ، ولم يلبثوا بعد ذلك أن فتحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ، فلم يرنجم الدين وولده بدا من الدخول فى طاعة بيبرس ، فطلبا منه السماح لهما بالحضور بين يديه فأجابهما السلطان الى طلبهما . وعندما قدم اليه نجم الدين ولاه حصون الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين ألف درهم ، كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار[١] . ثم أخذ السلطان بعد ذلك (١٢٧٠ — ١٢٧٣ م) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر[٢] ، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس فى مقابل ذلك بعض الأراضى المصرية ليستوطنوها . فكان فى هذا القضاء على قوتهم التى شغلت الظاهر وجيشه ردحا من الزمن . ومن العجيب فى أخلاق بيبرس أنه بعد إجلائهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم فى قضاء أغراضه[٣] .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١ — مغول فارس :

لم ينس المغول ما حل بهم فى موقعة عين جالوت ؛ فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها . فرأى بيبرس أن يتحالف مع بركه خان[٤] سلطان مغول

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ المقريزى : السلوك ص ٥٨٦ — ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270. وقد أورد المقريزى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الإسلام وشرائعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاكو . ويرجع ذلك لعدة أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاكو ببلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك لم يرق فى عينه تأسيس دولة هولاكو بفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركة حسب وصية جنكزخان (Enc. Isl. Art Berke) . وهناك سببان آخران لهذه العداوة التى كانت بين بركة وهولاكو ؛ أولهما عدم مظاهرة بركة للخان الأعظم قوبيلاى =

القفجاق ضدّ ايلخانات فارس ؛ غير أنه لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل ضرب الطرق والوديان المؤدية الى الشام حتى لا يجد المغول اذا تقدّموا ما يحتاجون اليه من الميرة[1]، كما أن هولاكو تحالف مع المسيحيين فى الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصليبيين لكى يقوى بذلك على صدّ هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر[2].

وقد كان لكل من التتار والصليبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف. فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم فى الحروب ضد الدّولة التى هزمتهم بالشام — وهى مصر — وردّتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم فى غزوهم. والصليبيون لم ينسوا الأمر الذى من أجله احتلوا المدن الشامية، كما لم ينسوا ذلك العداء الدينى بينهم وبين المسلمين، فأرادوا هم أيضا أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيرا فى اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعا يدا واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين.

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطانا كالظاهر يطمئن على بلاده فى الوقت الذى كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر. ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التى كانوا يغيرون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك.

ففى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصرها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيغان

= وانتصاره لأخ صغير له اسمه (Arigha-Buga)؛ فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر، وثانيهما أن هولاكو منذ أن صار بركة ملكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحرب. (وكان المعتاد أن يجمع التتر ما يحصل من البلاد التى يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام: قسمان للخان الكبير، وقسمان للعسكر، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٠١ — ١٠٣

(١) Stanley Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226.

الملقب بسم الموت، ثم سار على أثره إلى أن وصل الى غزة. وهناك علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها ولى التتار هاربين وتركوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعمة سائغة لجنده.[١]

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعمارة ماخرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام وباعداد كل مايحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التى رماها التتار فيه. وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه مالاقوه من شدّة وعناء فى إخلاء ذلك الخنـدق، فكتب إليهم: "إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة، ماهنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا فى هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور"[٢].

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التى كانت تتوالى على نواحى متعدّدة من بلاده، كما تبين لنا ملاطفته لأمرائه وتشجيعه لمن تذمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم فى غزوهم، وأن غيرهم من بقية الجيش لاينالهم من العناء مثل ما يلقون، كما يتضح لنا أيضا ما تنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجدّ فى محـاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تتم أمانيـه ويريح بلاده من غاراتهم وإفسادهم فى الأرض.

وهكذا ظل المغول فى فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو[٣] سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وخلفه ابنه أباقا[٤] الذى سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠

(٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٢٥

(٣) اختلف المؤرخون فى اليوم الذى توفى فيـه هولاكو، ففى أبى الفدا: المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢ أنه مات فى تاسع عشر ربيع الآخر، وفى مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٤٥ سابع ربيع الآخر؛ وفى المقريزى: السلوك ص ٥٤١، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفى فى يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر.

(٤) ورد هذا الاسم فى المصادر العربية أباغا، أبغا.

الصليبيين؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus)؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين. غير أن علاقتــه بالبابوات والملوك المسيحيين فى أوربا كانت سياسية أكثر منها دينية، فكان يراسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذى كتب إليه كتابا سنة ١٢٦٧ م، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسسكان عام ١٢٧٨م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للمغول . أما الغــرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هــذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدّسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدّة[(١)] .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشــترك الذى كان يهدّد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاكو المغولية ، وســنرى أنهــا واصلت انتصارها على جنــد ابنه أباقا الذين كانوا ينتهزون فرصــة اشتغال الظاهر بمحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أثنــاء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صــفد إذ أغاروا على الرحبة[(٢)]، غير أنهم مالبثوا أن ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداء كان مستحكما بين المغول والممــاليك فى ذلك الوقت، فقــد فكر أبغا فى ســنة ٦٦٧ هـ فى عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له فى ذلك صاحب سيس، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف فى هذه السنة كتابا ينبئه فيه بأن رسول أبغا يود مقابلته، فبعث السلطان أميرا من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه كتاب أبغا وقد جاء فيه: "إن الملك أبغا لمــا خرج من الشرق تملك جميــع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه

(١) Browne, A Literary History of Persia Vol. III pp. 18-19

(٢) بلدة واقعة على نهر الفرات .

هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا[(١)] " .

غير أن هذه الرغبة فى عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا : " اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض[(٢)] " . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع الصليبيين فى السنة التالية على الاغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقيما بالأسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل، فوردت عليه الأخبار بأن التتار أغاروا على الساجور[(٣)]، فسير الأمير علاءالدين البندقدار إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربتهم . وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين[(٤)] .

غير أنهم عاودوا الكرة فى سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم — وكان الظاهر إذ ذاك مقيما بدمشق — فلما رأى جدهم فى إغارتهم، أرسل إلى مصر يستدعى الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وثلاثة آلاف فارس لطرد التتار وردهم إلى بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب ، وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهاء فريقا من جيشه على رأسه أحد الأمراء[(٥)] . وسار السلطان إلى مصر لما علم بإغارة الصليبيين على قاقون، وظل أمراؤه يحاربون التتار حتى استولى الأمير علاءالدين طيبرس الوزيرى على حران، ثم عبر الفرات وعاد إلى مصر، فانتهز التتار فرصة غيابه وقدموا إليها وهدموا أسوارها[(٦)] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٤
(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩
(٣) نهر بجهات منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان و Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527 .
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٨٤
(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥
(٦) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا[١].

وعلى الرغم من هذه السياسة الوديّة التى اتبعها بيبرس إزاء سلطان المغول فى فارس، فإنه بلغه فى العام التالى (٦٧١هـ) — وهو ببلاد الشام — أن التتار قصدوا الرحبة وتقدّموا منها إلى البيرة، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال. ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر، ثم شرع هو وعساكره فى عبور الفرات وألقى المراكب فى النهر، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان فى النهر، وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار، وهناك أخذت جنوده فى مناوشتهم وقتلوا منهم عددا كبيرا[٢]، ثم عاد السلطان وعساكره فى النهر. ولما وصل إلى الشاطئ الشرقى من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فسار إليها ومنح واليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق[٣].

لم يرعو التتار بهذه الهزائم التى كانت تنزل بهم، إذ نراهم فى سنة ٦٧٢هـ يشرعون فى الإغارة على بعض البلاد فى الوقت الذى قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام. ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغا قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعى جيوشه فلحقت به عند يافا، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق، غير أنه لما تقدّم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر[٤].

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٠٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٢ — ٢١٥

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٣٤

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٧ — ٢١٨

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاها آخر فى مناوأة بيبرس؛ فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفا من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه [١]. غير أنهم ارتدوا عنها عند ما بلغهم تقدم السلطان إليهم. ويرجع السبب فى ذلك إلى خروج البرواناة عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده. وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قلج أرسلان. غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين [٢]. ولما علم بتقدم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمده بجيش من المغول، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرا ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبي السلطان بيبرس طلبهم. وفى هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية [٣] فحال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر. وعند ماوصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة. وظل البرواناه مقيما بقيسارية، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر [٤].

---

(١) البرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب. أبو الفدا: ج ٤ ص ١٠؛ وكان فى يد معين الدين هذا مقاليد الحكم فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ. Enc. Isl. Arts: Kilidj Arslān IV, Mu'in al-din Sulaiman Parwāna.

(٢) مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان وهى قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف. ياقوت: معجم البلدان؛ Le Strange: Palestine Under Moslems p. 277.

(٣) قيسارية أو قيصرية: اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطورتيهم بالشرق وشمالى افريقية وأسبانيا أيضا. ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطئ على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبى حيفا؛ ومنها قيصرية الروم وهى المقصودة هنا وتقع على نهير قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك. ياقوت: معجم البلدان؛ (Enc. Isl. Art. Kaisariya)

(٤) العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

على أن أهم الوقائع التى دارت بينه وبين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع فى السفر فى رمضان سنة ٦٧٥ ﻫ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذا لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر، فوصل إلى دمشق ورحل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتار والروم على لقائه ومحاربته [١] ؛ فرتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصبت عليهم الخيول الاسلامية من الجبل انصباب السيول وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا، وانجلت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار [٢] .

ولما انتهت الموقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها [٣]، ثم لم يلبث بعد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير فخرج الأهالى يتقدمهم القضاة والأشراف، وقابلوه فى موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فنزل بدار السلطان [٤]، ثم جلس على عرش قيسارية حيث تولى السلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبل عليه الأهالى فقدموا له فروض الطاعة، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية وقسم ثروة البرواناه على جيوشه [٥] .

ولما فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة ، ثم رأى أن بقاءه بها ربما كان خطرا عليه وعلى البلاد الشامية لتوقع معاودة التتار بجموعهم انتقاما لمن قتل من جيوشهم وتخليصا لمن أسر من

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٧ — ٦٢٨

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٨ ا

(٣) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 28.

(٥) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271

رجالهم، فرحل إلى الأبلستين ومر على مكان المعركة ليرى جثث القتلى من التتار، وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم. وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار كثرة من قتل من التتار[١].

وقد كان ما توقعه بيبرس. فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين. ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثرا عميقا أسال دموعه[٢]، وتغير على البرواناه عند ما علم أنه كان السبب فى حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم[٣]، ثم رحل إلى قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها. وعند ما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب وقتل منهم خلقا كثيرا[٤].

أما عن موقف البرواناه فى ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معه إلى معسكره على أثر انتهائه من قيسارية؛ وهناك استشار أمراءه فى أمره فأشار عليه فريق منهم بقتله، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه خراجها. وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه؛ غير أن نساء أمراء المغول الذين قتلوا فى المعركة عند ما علمن بذلك اجتمعن وأقمن ثورة فى وجه أبغا، فكلف أميرا من بلاد سيس بأن يأخذ معه مائتى فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان معين ثم يقتله، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغا يود أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضأ ويصلى، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه[٥].

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III, p. 19 ؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٧٠

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 28-29.

(٥) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٧٣ — ٢٧٥

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته الى مقاتلة التتار وقد تحمل هو وجيشه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات ما يجعله حقيقا بالاستماتة فى الدفاع عن هذا البلد وتخليصه نهائيا من يد التتار ، وعلم ما حاق بهم من جيوشه والسبب الذى من أجله هاجموا المدينة بعد أن هزموا عندها . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض الموقعة ومسيره الى حارم أمر بتسيير جيشه الى مصر ، وانتقل هو أيضا من حارم ذاهبا الى دمشق . وفى هذه الآونة انقض أيغا على المدينة ، ولم تتح الفرصة للظاهر أن يتراجع اليها ليقيها شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها ، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاقى الجيش فى هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس الى قيسارية بعد مغادرتها ، ذلك أنه بعد أن فارقها الى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء و يردهم على أعقابهم .

٢ — مغول القفجاق :

لم تكن العلاقة بين بركة خان والظاهر كما كانت بينه و بين هولاكو وخلفه . ولا عجب إذا رأينا القبيلة الذهبية[١] تحالف أبناء جلدتها من التتار وتدخل فى حلف

(١) لما قسم جنكز خان أمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القفجاق و يطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبه الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي . وكان غالب أهلها تركا وتركمان . ولما مات جوجى سنة ٦٢٤ ﻫ (١٢٢٧ م) انقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وثانيهم باطو (Bātū) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلنته ملكا عليها واعترف بذلك جنكز خان نفسه قبل مماته . لهذا انكمش سلطان أوردا إلى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde) . وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذ بها عاصمة سماها (Sarāi) وهو الذى غزا أوربا فتوغل =

مع المماليك بمصر مع ما هم عليه من العداء لاخوانهم تتار فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام[(١)] . وكان لإسلامه وما كان بينه و بين المماليك بمصر من الصلات الوثيقة أثر كبير فى انتشار الإسلام بين أهالى تلك القبيلة . فقد حذا حذوه الكثير من زعماء المغول فى هـذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيلولتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا فى خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاكو ألد أعدائه[(٢)] .

ولما علم بيبرس باسـلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاكو[(٣)] . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة و بينه من العداء ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاكو مع

— فى الروسيا و بولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠هـ) [١٢٣٧ — ١٢٤٠م] ، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجى خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقيها وغربيها ؛ فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم ما نجوخان الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطو خان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفى فى نفس تلك السـنة ، فتولى بعـده بركة خان ثالث أبناء جوجى خان . Enc. Isl. Arts : Cingis Khan, Bātū Khan, Bereke.

(١) يقال فى سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الاسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقد كاشف أول الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الاسلام وحبب اليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهـذا الدين الجديد . و يذكر الجوزجانى الذى جمع تاريخه فى حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الاسلام منذ طفولته . ولما شب و بلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . و يذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلما ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس فى جيشه سجادة للصـلاة حتى اذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن فى جيشه من يتعاطى أى مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين و رجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان فى حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدينية تشـغل أكثر مجالسه ، كما كان سـنيا مغاليا شديد التمسـك بدينه . Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 228-229.

على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت منذ سـنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) كرسيا لأسقفية مسيحية . Enc. Isl. Art : Bereke

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥

الصليبيين ضدّ سلطان مصر ؛ فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الاســلام — فى كفة واحدة ضــدّ عدوّهما المشترك الذى يريد الإغارة على بلادهما والقضاء على دينهما .

وقد دخل بركة خان فى حلف مع الظاهر بيبرس الذى ابتــدأ تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية، يبلغ عددها المــائتين، وكانوا قد فروا إلى ســورية لمــا ظهر لهم من العــداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه[1] وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق وهى المعروفة الآن بباب اللوق — كما ســيأتى — وبعث إليهم الخلع والأموال، وأمّر كبراءهم وأدرج بعضهم فى سلك المماليك ومنحهم بعض الإقطاعات. وكان من أثر هــذه المعاملة الحسنة التى عامل بهــا بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم[2] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه " ... فليعلم السلطان أننى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام لأنه باغى (كذا فى الأصل) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصــادى ورسلى صحبة رسل السلطان ... ووجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضرا فى الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه من عجاب القتال، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعدات، لأنه أقام إماما من آل عبــاس فى خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لمــا بلغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحى من أيدى الكفار[3] ... " .

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

أرسل إليه السلطان الرد[١] فى سبعين ورقة بغدادية[٢]، وأنفذ إليه هدية[٣] مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى والشريف عماد الدين الهاشمى ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن امبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان[٤]، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه ؛ فأخذ السلطان إقرارا منهم بذلك وأرسل إلى الامبراطور راهبا يونانيا ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتابا أغلظ له فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسس إلى الامبراطور أطلق رسل الملك الظاهر[٥]، فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزوينى فأنزلهم فى منزلة

(١) ذكر ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب " أن بيبرس جمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاغراء على (هولاكو) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هى عليه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى ... " .

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . ويستعمل فى كتابة المصاحف ومكاتبة كبار الملوك . وفى ذلك يقول القلقشندى (صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦) " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ؛ وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها " .

(٣) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ؛ أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات للصلاة متنوعة الألوان وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردها مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهى الفيل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس لبركة ، وكذلك بعض الملبوسات والأمتعة والأوانى الصينية .

(٤) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية فى طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل باليولوجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ، غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولاكو قد وصل إليه فى ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم فى التوجه الى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده سنة وثلاثة أشهر ماتت فى أثنائها الحيوانات التى أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٩٨ و ٥١٤

حسنة، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته . وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذى أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته. ولما فرغ من ذلك احتفل بقدومهم وأضافهم عند زوجته (ججك خاتون) وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدث إليهم فى بعض الشئون، وطلب منهم أن يذكروا له شيئا عن النيل وعن الأمطار فى مصر، كما سألهم عن الفيل والزرافة اللذين كانا ضمن الهدية التى أرسلها بيبرس إليه، ثم عادوا إلى مصر بعد ما أقاموا عنده ستة وعشرين يوما[١]، وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن فى المدارس[٢] .

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التى تبودلت بينهما . والتى كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان[٣]. وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥ هـ .

وفى عهد خلفه منكوتمر[٤] استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه ؛ فأرسل بيبرس فى سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتابا يغريه فيه بقتال أبغا[٥]، وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولاكو من أراضى المسلمين، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس . وقد حمل هذه

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولدا فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه باطو خان (Enc. Isl. Art. Berke)

(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٣٧

الرسالة إلى بيبرس عدة رسل من بيت بركة — وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عكاء . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار الأجانب بالأسكندرية من السفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحابهم من هؤلاء الرسل (١) .

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية فى الوقت الذى كان فيه العداء قائما بينه و بين مغول فارس، حتى أوقع بهم — كما رأينا — وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م، واستحكم العداء بينهم منذ ذلك الوقت. ولم تكن هناك جريمة أشد فى نظر مغول فارس من أن يروا رجلا منهم فى علاقة حسنة مع المماليك، حتى كانت الوسيلة الفذة للايقاع بأى مسلم من رعايا المغول هى اتهامه بالاتصال بالمماليك فى مصر (٢) .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

ابتدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين بيبرس وأرمينية فى الوقت الذى تقدم فيه هيثوم (٣) (Hethum) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤م)؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشا مكونا من عسكر حماه وحمص (٤) . ولما تقابل الجيشان

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ — ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان لهيثوم ملك أرمينية المسيحى الأثر الأول فى العمل على إقناع أمبراطور المغول مانجو خان (٦٤٦ — ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) ، وحمله على إرسال تلك الحملة التى فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ — ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ — ١٢٦٥م) الذى أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطوريين منهم بتأثير زوجته المسيحية؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحى وتعمدوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات . Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam, p. 221

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاكو رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب، وصارت تلك المملكة ولاية تابعة لدولة المغول فى فارس (Enc. Isl. Art. Armenia)

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٩؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٠

وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدّم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى . وقد تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم . غير أن تساقط الثلج وزمهرير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية (١) .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس (٢) والإغارة عليها، فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماه واخترقوا مضايق قيليقيا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده « ليفون »، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا كل ما فيها (٣) .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعا فى ولده، فوعده السلطان بتلبية طلبه، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر (٤) وأن يرد القلاع التى أخذها من مملكة حلب، وهى بهسنا ودربساك ومرزبان وشبح الحديد (٥) . أظهر هيثوم استعداده لتلبية الطلب الأول بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردّد فى تسليم القلاع، فكتب إليه السلطان يقول : " إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا منى ... ... " . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع فى طلب الصلح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 23.

(٢) وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢

(٤) كان هولاكو قد أسر سنقر هذا أثناء إغارته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ (٥) العينى : عقد الجمان ، المجلد الثالث ورقة ٥٤٤؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

الأشقر وأن يسلم لبيبرس قلعة بهسنا ودربساك وكل ما أخذه من البلاد الاسلامية ، وفى مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلفه على نسخة الصلح التى حلف عليها والده [١] .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فان بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدّة حملات سنة ٦٧٣ هـ على حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفى إحدى غزواته المروعة التى قام بها على الأرمن لنقضهم العهود كانت مدينتا سيس [٢] والمصيصة [٣] مسرحا للسلب والنيران وعاثت جنود الظاهر فسادا فى كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ؛ وكانت غنائمهم عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية [٤] .

فما تقدّم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم لكان خيرا لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين فى ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذى انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم وتشتيت شملهم [٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه المرة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرّضه على الدخول إلى بلاد الروم لما ضاق ذرعا بأجاى (Atchai) بن هولاكو الذى فكر فى قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه وكتب الى السلطان يقول له " أقصد هذه السنة (٦٧٣ هـ) سيس ، وفى السنة القادمة أملكك البلاد " فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب الى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطئ نهر جيحان وهى تقارب طرسوس و بينها و بين أطنة تسعة أميال . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 27. ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

(و) علاقة بيبرس بملوك أوربا :

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة ؛ ففى الوقت الذى كان فيه العداء مستحكما بينه وبين الصليبيين والمغول فى فارس نراه يخطب ودّ امبراطور الدولة البيزنطية[١] و يوفق فى ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الامبراطور من سلطان مصر خير معين وعضد له على عدوهما معا فى البلاد الشامية .

ولما استحكمت بين الدولتين عرا المسالمة طلب الامبراطور من بيبرس بطريقا من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب فى دولته ؛ فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعه الرشيد الكحال و بعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذى جدّد بناءه[٢] ؛ ثم عاد هذا الأمير ومعه البطريق محملا بالهدايا . وعند ما علم السلطان بأن الامبراطور جدّد بناء ذلك المسجد شرع فى تأثيثه؛ فأرسل إليه الحصر والقناديل المذهبة والمباخر والسجادات والطيب[٣] .

---

(١) كان امبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفا فى المذهب لكنيسة روما ، كما كان عدوّا للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكى وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنطينية وعوامل العداء متأصلة فى نفوس الفريقين . ومن الطبيعى أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية فى نفس الأمبراطور ميخائيل لكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما لهؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العبث وسوء الإدارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدّة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور فقضى عليها سنة ١٢٦٢ م ؛ و بذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Stanley Lane-Poole p. 260 ؛ Camb. Med. Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد هدمه اللاتين أثناء إغارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ؛ العينى : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؛ Stanley Lane-Poole p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ ؛ المقريزى : السلوك ص ٤٧١ — ٤٧٢

وقد أحسن الملك الظاهر صنعا بالتحالف مع هذا الامبراطور ليستعين به هو أيضا على الصليبيين، وليفسح المجال للتجارة المصرية فى بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هـذا إلى وقوفه فى وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليفه سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) عند ما عاق رسله عن مواصلة السير إلى بركة خان كما تقدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاكو . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الامبراطور فى السنة التالية يرسل إليه الهدايا(١) مما يدلنا على أنه كان يحرص على محالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والامبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أباقا بن هولاكو من ابنة امبراطور القسطنطينية(٢) . فكان من أثر هـذه المصاهرة أن تقرّب كل من أباقا والامبراطور من الآخر وفى هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمحالفته امبراطور القسطنطينية، بل تبادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا(٣) الرسل والهدايا؛ فأرسل فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفدا(٤) مزوّدا بالتحف وعددا من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا فى موقعة عين جالوت بخيولهم التترية وعدّتهم(٥) . ولما قدم هذا الوفد إلى الامبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة بالزراف والتحف . ولم يلبث بعد ذلك أن أرسل إلى السلطان هدية مع أحد رسله(٦) وبذلك توثقت عرا الصداقة بين البلدين وازدادت

(١) المقريزى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole. p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر فى Ens. Isl. Art. Ibn Wāsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين ابن واصل .

(٥) Camb. Med. History VI p. 177.

(٦) أعاد الامبراطور مع هذا الرسول مملوكين بحريين عندما أساءا الأدب على أثر قدومهما اليه مع هدية السلطان . ولما وصلا إلى مصر أمر بيبرس بتأديبهما فاعتقلا بقلعة الجزيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب .

رسوخا فى عهـد شارل صاحب أنجو[١] (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التى تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ، وفضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ فى صقلية . ويتضح لنا ذلك من هـذا الكتاب الذى أرسله إليـه أحد كبار رجال دولة الملك شارل ، إذ قال له فيـه " إن مخدومه (شارل) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافـذا فى بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه[٢] " . وربمـا كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل فى عقد معاهدة تجارية بين دولة الممـاليك ومملكة صقلية .

ولم تقف مساعى بيبرس عند هذا الحدّ بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أرجونة (Aragon) وألفنس أمير إشبيلية[٣] الذى تبودلت بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا . وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها ودّه فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا مزوّدين بالهدايا ؛ وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحفاوة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه ، فأكرم وفادتهم وقبـل الهدية منهم ثم أعدّ لهم مركبا أبحروا فيـه إلى الأسكندرية فوصلوا إليها فى صفر سنة ٦٧٥ هـ[٤] .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة :

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدّون إليه الجزية ؛ غير أنهم كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلمـا سنحت لهم الفرص ؛ وقد

(١) كان شارل هـذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التـاسع ملك فرنسا . غير أن القائد الجـديد حوّل غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ؛ فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحيي بن عبـد الوهاب بدفع مبلغ من المـال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية ترفع إلى خزانة مملكته . ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٢١ ، Barker, The Crusades. pp. 87-89.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٣

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأوّل ورقة ٢٢٧

حدث ذلك فى أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل آسمه شكندة يؤدى الجزية ويقدّم فروض الطاعة لمصر، فثار عليـه ابن أخيـه « داود » ووقع بينهما الشقاق والنزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده [١] .

ولـما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفـع الجزية السـنوية لسطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغـيرا على بعض قرى الديار المصرية وآستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب [٢] .

وعند ما لم يقو شكندة على آسترداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجدا بالملك الظاهر . فانتهز بيبرس هذه الفرصة ليثأر من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لاتنقطع عن صعيد مصر [٣]، فجهز مع شكندة قوّة من الجند بقيادة شمس الدين أقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر . فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ﻫ (١٢٧٥م)، ولـما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهـم وبيع السبي بثلاثة دراهم .

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيـل إلى البر الغربى . فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى ركبا بمن معهما وتابعوا السير جميعا للقضاء عليـه ؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمّه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة، فانتهزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة [٤] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 28.

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأوّل ورقة ٥١ و ٥٢

ولمـا تم لهم ذلك فرضوا عليـه أن يقدّم للسلطان فى كل عام عددا من الفيلة والزرافى والفهود والخيـول والأبقار وأن يكون نصف محصـول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها؛ ثم عرضوا على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختاروا الجـزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عينا . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هـذه الشروط وحلفوا شكندة عليها[1] كما حلفوا أيضا رعاياه على طاعة نائب السلطان[2] . فأين هذا ممـا صنعه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح معهم ؟ فإنه عنـد ما لم يستطع التغلب عليهم والإستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقـد معهم صلحا أشـبه بمعاهدة تجارية تتعهد فيهـا مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتتعهد النوبة بتقديم الرقيق .

---

(١) أورد مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، نص هذا اليمين وقد جاء فيـه "والله والله والله وحق الثالوث المقدّس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الحواريين والقدّيسين والشهداء والأبرار وألا أجحد المسيح كما جحـد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود ... أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هـذا وساعتى هـذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيـا والدين بيبرس خلد الله ملكه وانى أبذل جهـدى وطاقتى فى تحصـيل مرضاته وانى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يحصل لمن تقـدّم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان ... والنصف الآخر مرصدا لعمارة البـلاد وحفظها من عدوّ يطرقها وأن يكون على فى كل سـنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس وانى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية وانى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئا من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب واعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود، ثم انى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيرا ولا كبيرا ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الابواب العالية وانى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقتـه وانى لا أنفرد بشىء من الأشياء وانى عبد مولانا السلطان عند نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من والاه وعدوّ من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد" .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٢

ولما فرغ الأميران الأفرم والفارقانى من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، فخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بالا يباع من السبي يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها[١] . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ ه، فاعتقل بقلعة الجبل[٢] .

وهكذا اتسع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة، ويقول ميور[٣] فى ذلك : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز :

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان ما بين شرفائهما من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلبى أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه و بين الأمير جماز، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ ه واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذا مكوسا من أهالى مكة وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب السكة باسمه[٤] .

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ ه لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الانشاء فخر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦

(٣) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

وبعض الأجناد . وعند ما وصل إلى المدينة فى أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سار منها إلى مكة فأدّى بها فرائض الحج . ولما فرغ من ذلك علق كسوة[١] بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغا كبيرا من المال ليوزعوه على أهالى الحرمين ، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأميرى مكة وزاد فى المال المقرر لهذين الأميرين ليسهلا للناس الحج إلى بيت الله الحرام وعين نائبا له بمكة تلبية لطلب أميراها[٢] . وبذلك ازداد نفوذ بيبرس فى تلك الأماكن المقدسة .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة وبيبرس :

ارتبطت مصر بعلاقات الودّ مع الحبشة فى عهد بيبرس ، فأرسل ملكها كتابا إلى الملك الظاهر يتودّد فيه اليه ويطلب منه أن يرسل اليه مطرانا[٣] . وقد خاطبه فيه بقوله[٤] : "أقل المماليك لخر أملاك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه . إن رسولا وصل إلى جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطرك يعمل لنا مطران يكون رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة ويسيره إلى مدينة عوان . فأقل المماليك يسير إلى نوّاب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان . وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أنى كنت فى بيكار فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين وإنما (كذا فى الأصل) النصارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ،

---

(١) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز فى كل عام كسوتين : إحداهما للكعبة ، والأخرى لقبر النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) المقريزى : السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٥١ (٣) ذكر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٣ ، أن المطران فى عصره هو القاضى الذى يفصل فى الخصومات بين أهل طائفته .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٩ — ٢٢١

والمطران الكبير يدعو لك ... وكل من يصل إلى المسلمين من بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون . والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض وبلادنا وخمة " .

فكتب إليه بيبرس يقول(١) : "ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكته حطى ملك أمحره أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشى عصره وفريد مملكته فى دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، سلطان الأمحره ؛ حرس الله نفسه وبنى على الخير أسه ، فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف من المسلمين؛ فالله تعالى يكثر فى عساكر المسلمين . وأما وخم بلاده فالآجال مقدّرة من الله تعالى وما يموت أحد إلا بأجله ، ومن فرغ أجله مات" .

فمما تقدّم نرى كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين والشرقيين المعاصرين له ؛ فكانوا جميعا يخشون بأسه ويعملون كل ما فى وسعهم للتودّد إليه والتقرّب منه ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة والنبوغ فى فنّ الحرب .

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٢١ — ٢٢٢

الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس

---

(١) النظام السياسى والادارى .

(٢) القضاء .

(٣) الجيش والبحرية .

(٤) الحضارة المادية .

(٥) منشئات بيبرس .

(٦) الحياة العلمية والأدبية .

(٧) الحالة الاجتماعية .

الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس

١ — النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية؛ فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المماليك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشيره بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته [١] . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقد كان ملكيا وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا ينالها إلا أقوى الأمراء نفوذا وأكثرهم أنصارا وأشدهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثة العرش فى أسرته [٢] ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم، وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريما له فاستبشر بذلك

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 30.

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيدمر الحلى، ثم قرئ تفويض[1] عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء[2] وقد جاء فيه :

"الحمـد لله منمى الغروس ومبهج النفوس ... ونشهد ألا إله إلا الله وحـده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده ... ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرّسنا فيه الزيادة والنمّو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار . أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خوّلنا الله من شرفه وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره ... جعل الله مطلع سعده بالاشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها ... وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام ... ومن يسكنها من حقير وجليل ... وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسل وهذا يسأل . ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق . ولا غصن قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينـا ولديه تمتد له الأوراق، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس . فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور

---

(١) يفهم مما ذكره النويرى ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٦٠، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء فى صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعة للملك السعيد ؛ ولما تم له ذلك جدّد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... والله لا يعدمنا منه إشفاقا وبرا ويجعله أبدا للأمة سندا وذخرا[١] " .

على أن نظام وراثة العرش لم يكن مألوفا عند المماليك ؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربيــة وكثرة الأتباع والحذق فى تدبير المؤامرات . وفى أغلب الأحوال كان يرث التـاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخلعه أتابكه[٢] كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك[٣] . وقــد فطن بيبرس لذلك عند ما أحس بالموت فكتب وصية لابنه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها : " إنك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنــه ما يشــوّش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحدا فى هذا وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك[٤] " .

وقــد تحقق ما كان يخشـاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنــه الملك السعيد أخذ الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطر أخيرا إلى النزول عن العرش بعد أن ظل فى الحكم أكثر من سنتين[٥] .

ولمـا نزل الملك السـعيد عن العــرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال " أنا ما خلعت الملك السـعيد طمعا فى السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر[٦] " .

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقه ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سـنة ٤٦٥ هـ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ وقد تحوّل هذا اللقب الى لقب عسكرى فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيوش .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧ (٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٤٠ أ . (٥) Sir William Muir. Op. Cit. p. 33.

(٦) المقريزى : السلوك ص ٦٥٦

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر احترام مبدأ وراثة العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التى أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكوِّنون أغلبية الجيش، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة. وقد لقى قوله قبولا لدى الأمراء فولوا سيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكا له؛ فقبض قلاوون على زمام الأمور فى البلاد وانتهز فرصة صغر سنّ سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلعه ليحل محله فى عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستمال إلى جانبه المماليك الصالحية موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الاقطاعات وولاهم بعض الولايات.

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدّث معهم فى صغر سنّ الملك العادل وقال لهم: "قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل" فاتفقوا على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطانا على مصر [1].

وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون. وهذا يثبت لنا أن مبدأ وراثة العرش لم يكن مقبولا لدى أمراء المماليك. فقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون مؤهلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع.

وقد استعان بيبرس فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقرّبين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما أنه أحيي وظيفة نائب السلطان التى ابتدعوها فى عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته فى أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته. فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه فى توزيع الاقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة ولاتساع سلطته سمى «كافل الممالك والسلطان الثانى» [2].

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

كذلك اتخذ بيبرس وزيرا له ؛ وكان يستشيره فى أمور الدولة، كما كان واسطة بينه وبين الرعية، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره و إسداء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة. غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه[١] ولتدخله فى تعيين كبار موظفى الدولة . وقد تولى الوزارة فى عهده الصاحب بهاء الدين بن حنا . وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التى خاطبه بها محيي الدين بن عبد الظاهر عند ما كان مع بيبرس فى قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ؛ فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة[٢] .

وكان يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

وقد ظلت الوزارة قائمة فى ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على « ناظر الدولة » فى إدارة شئون البلاد . وكانت رتبته تلى رتبه الوزارة ويعاونه فى عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين ولهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة وتعيين صغار الموظفين[٣] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير، كما استحدث وظيفة «ناظر الخاصة» وكانت مهمة القائم بأعبائها فى أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان ؛ غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقربه من السلطان فأصبح يتدخل فى أموره الخاصة[٤] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣ (٢) القلقشندى : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

مما تقدّم نرى كيف أن سلاطين المماليك فى ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم فى إدارة شئون الدولة كما كانت الحال فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية، فأضعفوا أوّلا من نفوذهم ثم آستبدلوا بهم بعض كبار الموظفين، فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاصة » يقوم بمهام الوزارة . ولعلهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال فى أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمثول بين يديه مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم تقف مهمته عند هذا الحدّ بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه، ثم أخذت سلطته تتسع تدريجيا حتى أصبح يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر[١] طبقا لأحكام الياسة التى وضعها جنكزخان[٢] .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب فى المكانة وهم " الاستادار " و" الدوادار " و" الأمير جاندار " . وكان يعهد إلى الأوّل إدارة البيوت السلطانية،

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم مصر واعتناقهم الدين الاسلامى لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ؛ وقد أظهروا رغبتهم فى العودة الى اتباعها . وفى ذلك يقول المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢١ " ... ... واحتاجوا (المغول) فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسة ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا فى الأصل) والأخذ على يد قويهم و إنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة " .

(٢) كان جنكزخان قد وضع بعض تشريعات للغول وأثبتها فى كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ماجاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يدخل بين اثنين يتخاصمان و يعين أحدهما على الآخر، ومن يبول فى الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة و يخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أو يكسوه بغير إذنهم، ومن يجد عبدا هاربا أو أسيرا ولا يردّه ؛ ومن يقع قوسه أثناء القتال، ومن يتردّد من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . وفضلا عن ذلك فانه قرر ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ؛ وألزم أفراد رعيته باحترام جميع الملل والمذاهب . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

ويبلغ الثانى الرسائل للسلطان ويقدّم إليه المنشورات للتوقيع عليها . أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه فى استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها (١) .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها "رأس نوبة الأمراء" و "أمير المجلس" و "أمير السلاح" . وكان يتولى الأوّل الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بمحاكمة المماليك السلطانية . أما "أمير المجلس" فكانت مهمته حراسة السلطان ، وازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه . واختص "أمير السلاح" بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدّات الحرب (٢) .

وكان للسلطان ولاة ينوبون عنه فى إدارة شئون الدولة المصرية ، ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية . وكانت الأسكندرية (٣) أعظم الولايات شأنا فى ذلك العصر لأهميتها التجارية ، وكذلك ثغر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تمر به تجارة الشرق . وكان الوجه القبلى مقسما إلى عدّة ولايات ؛ ومن أهم ولاياته : قوص والأشمونين والبهنسا والجيزة . أما الوجه البحرى فأهم ولاياته : بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمنهور وقليوب ودمياط (٤) .

ومن الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وظيفة «الولاية» ؛ وهى تقابل ما يعرف فى العصر الاسلامى الأوّل بالشرطة (٥) . ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الأعمال الادارية التى تكفل سلامة الجمهور .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥

(٣) كان يطلق على الأسكندرية فى عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية ، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية فى أيام الظاهر برقوق . وكان فى عهده ثلاث نيابات : نيابة الأسكندرية ، ونيابة الوجه القبلى ، ونيابة الوجه البحرى . القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٥) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

وكان يقوم بأعباء هـذه الوظيفة فى عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشاكل التى تحدث بين سكانها ، ويعهـد الى الثانى بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط . أما الثالث فكان يلى شئون القرافة[١]. ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة فى زيارات القبور وخاصـة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعبث بها اللصوص . وإلا فليس من المعقول أن يتساوى والى القرافة مع والى كل من الفسطاط والقاهرة ان لم يكن فى القرافة عمل يساوى عملهما .

وكان "صاحب العسس" بالقاهرة يتولى الاشراف على مطافئ الحريق بها، فيجلس بعد صلاة العشاء أحيانا بمحطة المطافئ التى اتخذها المماليك بسوق الجملون الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية . وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشـية حدوث الحريق بالليل فيبادرون الى إطفائه[٢] .

ديوان الإنشاء — وجه بيبرس عنايتـه إلى ديوان الإنشـاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التى عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم .

وكان هـذا الديوان يتكون من طبقتين من الكتاب ؛ تعرف الطبقـة الأولى منهم بكتاب الدست[٣]، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان ، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل . وكانوا فى عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدرا محيي الدين بن عبد الظاهر . أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج[٤] ؛ وهؤلاء كانوا يقـومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشـاء وكتاب

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ (٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٠٣
(٣) سموا بذلك لجلوسهم للكتابة بين يدى السلطان . (٤) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم لكتابتهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال .

الدست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم[(١)] . وكان عددهم يزداد كلما ازداد عدد كتاب الدست .

وقد تولى رئاسة ديوان الانشاء فى أيام الملك الظاهر فخر الدين بن لقمان[(٢)]، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب وامتازوا بالمقدرة فى فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها[(٣)] .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب الى ذلك الوقت بصاحب ديوان الانشاء؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولى الديوان القاضى فتح الدين بن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون ؛ فلقب بكاتب السر، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولى ديوان الانشاء[(٤)] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان فى ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية فى الوقت الحاضر، إذ كانت ترد اليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التى كان بينها و بين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التى يرسلها السلطان الى حلفائه . وقد ازداد نشاطه فى أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التى تبودلت بينه و بين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس الى منفعة البريد فوضع له نظاما ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البرى والجوى . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل[(٥)]، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى أنحاء

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣١ (٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٦ (٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ (٥) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد أحدها إلى قوص وآخر إلى عيذاب وثالث إلى الاسكندرية ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٣

امبراطوريته، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاة الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد فى عهده يرد على مصر مرتين فى الأسبوع؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالا ضخمة فى سبيل ترتيبه[١].

وقد زود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد[٢]، وأعد بكل منها خيولا لا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطانى[٣].

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد[٤] بالديوان، فإذا خرج بريدى الى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه فى ذهابه وإيابه[٥].

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفاية والذكاء لابلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء؛ وكانت لهم مكانة محترمة.

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادى فى إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل؛ وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد البرى، لكنها تزيد عنها فى المسافة. فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها[٦].

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاجل؛ فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ — ٤٤٧ ؛ (٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ (٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨

(٤) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة" . وعلى الوجه الآخر : " عز لمولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين" .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

فى ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى . وقد جرت العادة أيضا ألا يطلق الحمام فى الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى [(١)] .

وكان حمام البريد السلطانى يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة؛ فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه [(٢)] . وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء امبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٢ — القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة؛ فتولى بنفسه النظر فى المظالم وأقام لذلك دار العدل التى كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل فى قضايا رعيته فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد، وكبار موظفيه الماليين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء [(٣)] .

وكان قاضى القضاة فى مصر عند ما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى، فعزله الملك الظاهر فى سنة ٦٥٩ هـ، وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين

---

(١) المقريزى : خطط ج٢ ص٢٣١ — ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ص٤٣ — ٤٤

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 246.

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

عبد الوهاب بن بنت الأعز[١]، وكتب له بذلك تقليدا جاء فيه " ... رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه ... أن نفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسنا ... فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفا ... وليول من القضاة من يحيي من الحق سننا ويميت (ويمت فى الأصل) من الباطل بدعا ... وليتفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم ؛ ولا يترك منهم إلا شاهدا كان على (المعايب) غائبا أو متورعا ... وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا ... ورعينا بك حق الرعية، فلا تخل أمورهم من مراعاتها . وأمض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعد القعود ... وقد قررنا لك من الجامكية والجراية ما كان مقررا لمن تقدمك، وهو فى كل شهر أربعون دينارا وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين ..."[٢] .

على أن تاج الدين لم يظل منفردا بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه السنة برهان الدين السنجارى . وصار الأول مختصا بقضاء القاهرة والوجه البحرى ؛ أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى . ولم يمض على ذلك وقت

---

(١) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية . ومات أبوه وهو صغير فى ذى القعدة سنة ٦١٢ هـ؛ فربى فى حجر جده لأمه الصاحب الأعز فخر الدين مقدام . ولما بلغ أشده درس القرآن والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية فهر فيه لفرط ذكائه ؛ فولاه الملك الكامل شاهدا لبيت المال وظل فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظر الدواوين ؛ ثم تولى قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى . ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين الى القضاء وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ؛ ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة ، وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس الى القضاء فى عاشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩هـ ، وظل يتولى القضاء فى مصر الى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥هـ . ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ، وقلد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها[١] .

وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهريا على النظام القضائى بمصر؛ فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[٢] . ويرجع السبب فى ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده فى أحكامه؛ فقد حدث أن استشاره السلطان فى قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضى بدر الدين السنجارى، وأن ورثته ادّعوا بعد وفاته أنه موقوف . فأجاب القاضى بأنه إذا ثبتت الوقفيـة يستعاد الثمن من تركة البائع ، فقال السلطان : فإن عجزوا عن الثمن ؟ قال : يظل الوقف على أصـله ؛ فامتعض بيبرس منه . وفى هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال : يا مولانا السلطان ! سألت هـذا القاضى أن يسلم إلىّ المـال الذى تحت يده من الوقف لأنفقه فى فقراء المدينـة فلم يفعل ؛ فسأل السـلطان القاضى عن ذلك ، فقال القاضى : صدق هذا الرجل ؛ أنا لا أعرفه ولا أسلم المـال إلا لمن أعرفه ... فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه . فقال السلطان : تخرجه من عنقك وتجعله فى عنق لا تسـلم المـال إلا لمن نختاره ونرضاه . ثم تقـدّم بعض الأمراء وقال : شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته؛ فسأل السلطان القاضى عن ذلك ؟ فقال : ما شهد أحد عندى حتى أثبته، فقال الأمير إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ . قال السلطان : لم لم تسمع قوله ؟ . فقال : لا حاجة فى ذكر ذلك . فقام الأمير جمـال الدين أيدغدى وقال : نحن نترك مذهب الشافعى لك ويولى السـلطان من كل مذهب قاض ؛ فوافقـه بيبرس على ذلك وأقر القاضى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥ و٤٧٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ ؛ Stanley Lane-Poole, p. 274.

تاج الدين بن بنت الأعز فى قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكى قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين ابراهيم القدسى قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليدا وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بأنحاء الديار المصرية[(١)]، وأضاف إلى اختصاصات القاضى تاج الدين النظر فى ديوان الأحباس وأموال الأيتام والورثة . وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضى ضعفت بعض الشيء على أثر هذا النظام الجديد الذى وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يترددون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحد منهم فى مجلس السلطان غيره[(٢)] .

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاء قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر . وكانت مرتبته فى الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب[(٣)] .

٣ — الجيش والبحرية

تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة فى عهد بيبرس عما كانت عليه فى أيام الدولة الأيوبية . فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية[(٤)] حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فاقتنى عددا كبيرا من المماليك كان معظمهم من الأتراك[(٥)]. ويرجع السبب فى ذلك إلى المنافسة التى قامت على الملك بينه وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أولى منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه الكردى، ولم يبق

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١١٥ — ١١٧ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٨ — ٥٤٠ (٢) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 243

معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد، فاستكثر من شرائهم [(١)]، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات ، كما أنشأ بها جامعا وستين برجا . وعندما تم بناؤها انتقل إليها بحريمه وأهله، واتخذها دارا للملك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت دولة بنى أيوب وتولى المعز أيبك سلطنة مصر، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل؛ وظل الحال على ذلك حتى ولى الظاهر بيبرس عرش مصر، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تم بناؤها أسكن الأمراء فى أبراجها [(٢)] .

ولما ولى المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ – ٦٨٩ هـ) [١٢٨٠ – ١٢٩٠ م]، نقل المماليك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه فى كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلا ولا نهارا إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ – ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ – ١٢٩٣ م] ، فسمح لهم بالخروج منها نهارا ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقرا للمماليك السلطانية، وسمح لسائر المماليك بالخروج مرة فى الأسبوع إلى الحمام؛ فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدّام ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار [(٣)] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٨٣ – ١٨١ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٠ – ٢٠٣

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدّته وقت الحروب؛ فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التى كانت تتطلبها البلاد فى ذلك العصر وهى محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول، كما عنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سنّ البلوغ، ثم يمرّنوا بعد ذلك على الأعمال الحربية، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان (١).

وكان هذا الجيش يتكوّن من المماليك السلطانية وجنود الحلقة . ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها : فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأقربهم إلى السلطان ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة . أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا حكم له إلا إذا خرجوا للقتال؛ فعليه ترتيبهم فى مواقفهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه (٢).

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رءوسهم الكلوتات (٣) الصفراء بغير عمامة، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء ضيقة الأكمام من القطن البعلبكى — وفى بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء — ويشدّون على أوساطهم بنودا من القطن (٤).

أما عن الأسلحة التى كانوا يستعملونها فى حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والنشاب . وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر فى حروبه ضدّ الصليبيين والتتار، نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاعيع التى كان يهدم بها أسوار القلاع التى يستولى عليها (٥) .

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥
(٣) وهى أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة .
(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨
(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

ولم تكن هناك مرتبات ثابتــة لهؤلاء الأمراء والأجناد، بل آستعيض عن ذلك بأقطاعات كان يمنحها السـلطان لهم . وكان المقطع منهم يحـل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيرا ما كان يكافئ أمراءه وجنــوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه فى إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجـاع الدين والى سرمين[1]؛ فإنه أعطى ابن الأول إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلمانه[2] .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشيء الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع؛ فهى هبـة من السلطان، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء[3] .

البحـــرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حد اهتمامه بتكوين هـذا الجيش، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسـة الى انشاء أسطول قوى يستعين به فى صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر؛ فعمل على إعداد قوة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها الى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الاشتغال فى الأسطول اذا دعت الضرورة الى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عارا يسب به الرجل، فاذا

(١) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١

قيـل لرجل يا أسطولى[(١)] غضب غضبا شديدا . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم باعادة شأن الأسطول الى ما كان عليـه فى عهـد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن، كما أمر باعداد الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعدّ أسطولا مكوّنا من أربعين قطعة حربية سيره الى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ ه؛ غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها[(٢)] . ولمـا علم بذلك بيبرس شرع فى إنشاء أسـطول آخر وظل يتردّد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده[(٣)] .

وهكذا نجح بيبرس فى العمـل على إعادة شأن الأسـطول الى ما كان عليـه فى عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتلائه سـلطنة مصر (٦٨٩ — ٦٩٣ ه) [١٢٩٠ — ١٢٩٣ م] بانشاء أسطول قوى . ولمـا كملت عدّته الستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال، وسار الى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول، وأقام لذلك احتفالا كبيرا أقبل اليه النـاس من كل حدب وصوب، وازدحمت الطرق والميـادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولمـا أقبل السلطان خرجت الشوانى[(٤)] والحراريق[(٥)]

---

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى انما أتى الى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التى حملت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتى فى أساطيل غالبا . فاذا قالوا للرجل يا اسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى فى الأساطيل . (٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ (٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

(٤) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأنا وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدّة طبقات تقف فى الطبقة العليا منهـا العساكر المسلحة بالقوس والسهام، وفى الطبقة السـفلى الملاحون بالمجاذيف . (٥) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفط؛ ولهذا كانت تسمى حراقة نفط أو حراقة بارود .

والطرائد[(١)] واحدة بعد أخرى . وعلى كل من الشوانى برج وقلعة، وتبارى الجند "وما منهم إلا من أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه"، ثم رجع السلطان فى عسكره الى القلعة، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح[(٢)] .

ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت اليه مصر فى ذلك العصر من التقدّم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها، ولا سيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها .

٤ — الحضارة المادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة فى مصر، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلأت خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعدّ جيشا قويا يصدّ به غارات الصليبيين والمغول التى تطلبت منه أموالا كثيرة، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الاصلاحات فى أنحاء الديار المصرية، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التى ظهرت فى عهده بمظهر القوّة وفاقت غيرها من مدن العالم الاسلامى فى العظمة والعمران؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملأى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون فى بحبوحة من العيش .

(ا) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأوّل من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور فى كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهى الجسور التى يعود نفعها على البلاد عامة، ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج، وما بقى منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثانى فهو الجسور

---

(١) الطرائد هى سفن خاصة بحمل الخيول ؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا ، وربما وصلت الى ثمانين فرسا .

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

البلدية ؛ وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحى، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر[١] .

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترع وتطهير الخلجان؛ كما اهتم بانشاء القناطر، فبنى قنطرة على بحر أبى المنجا[٢] بناحية بيسوس[٣] بمديرية القليوبية، كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة[٤]؛ فنمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها .

وكان يزرع بأرض مصر القمح، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين، كما كان يزرع بها أيضا الشعير والفول والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء الدواب) إذا ما أخذ النيل فى النقصان؛ وكان يتراوح محصول الفدان الواحد بين أردبين وأربع ويبات. كذلك اشتهرت مصر فى ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن، كما كثر بها زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتى (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرنب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت والموز والزهور: كالورد والبنفسج والنرجس والياسمين واللينوفر والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه[٥] .

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكر منها بساتين اللوق التى عنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان السلطان الصالح أيوب، وبستان البورجى بالقرب من المقس . وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار[٦] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩

(٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه الترعة الى أيام الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودى فعرفت باسمه . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

(٣) قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط واسمها الحالى باسوس . على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤

(٦) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(ب) الصناعة — كذلك كان للصناعة النصيب الأوفر من عناية بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها ؛ فإن الدولة المصرية فى ذلك الحين كانت فى حاجة إلى جيش قوى يحمى حدود امبراطوريتها الواسعة . وكان لابد من تموين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقية مراكز صناعة المنسوجات ؛ نخص بالذكر منها مدينتى تنيس ودمياط التى برز سكانهما فى عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال، كما اشتهرتا بحياكة الثياب المصنوعة من الكتان[1] .

وكان يصنع بتنيس قصب ملون تتخذ منه العمائم . أما دمياط فقد برز أهلها فى صناعة القصب الأبيض، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضا نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار[2]. كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية[3] . ومن هذه المراكز الصناعية كان السلطان يمد أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية و جميع لوازم التعبئة فكان لها أسواق بالقاهرة . وكثيرا ما كانت تزدحم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع آلات السلاح فى الوقت الذى يشن فيه بيبرس الغارة على أعدائه ببلاد الشام، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب[4] .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التى اشتهرت بها من عهد بعيد . ومن هذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التى مهر فى صناعتها أهل دمياط

---

(١) القلقشندى : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ (٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ (٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٦٢٦

وكذلك صناعة السكر من القصب الذى كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلى مثل ملوى وسمهود وقفط . وكانت هذه الصناعة فى عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة ؛ وقد بلغت أوجها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . يحدّثنا المقريزى[١] أنه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصير القصب ، كما كان بملوى عدّة أحجار . وكان يسكن بهذه المدينة فى عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل بلغت مساحة الأرض التى زرعوها قصب سكر ألفا وخمسمائة فدان فى العام . وقد أودع أصحاب هذه الأراضى فى مخازنهم اثنين وثلاثين ألف قنطار من محصول سنة ٧٣٨ هـ .

وكان الزجاج أيضا يصنع بمصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك . ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات[٢] الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف . وعلى البدن كتابة حمراء نصها : "مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان" . ويؤخذ من هذه الألقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذى قتل سنة ٦٩٣ هـ . وكذلك بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية ، وعلى بدنها اسم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم[٣] .

وهناك صناعة أخرى عنى بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة فى مصر فى عصر المماليك وهى صناعة المعادن ؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم . وليس أدل على ذلك من قاعة « البيسرية » التى بناها

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٢) المشكاوات : جمع مشكاة وهى المصباح . وقد ورد فى القرآن "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح" . [سورة النور]

(٣) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقريزى[١] أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس، وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب تزن ٣٨,٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك فى صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التى أرسلها بيبرس الى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتى كانت تشتمل على كثير من الأوانى الصينية[٢] .

كذلك اهتم المماليك بصناعة الأدوية . وان فى مارستان قلاوون الذى يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حيا لارتقاء هذه الصناعة فى هذا العصر . فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء فخما يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة، وأعدّ به غرفا متسعة فرشها بالأسرة للرضى من الفقراء والأغنياء على السواء، وجعل بها قسما خاصا بالنساء، كما خصص الايوانات الأربعة للرضى بالحمى، وأفرد قاعة للصابين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للصابين بالدوسنتاريا ، كما أنشأ به معملا كيميائيا أعدّه بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية[٣] .

ومن الصناعات التى أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دورا لصناعتها بجزيرة الروضة وبثغرى الاسكندرية ودمياط[٤] . وكان يذهب بنفسه

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

الى دار الصناعة بالجزيرة و يتفقد أمورها ، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التـــجارة — ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الخصبة من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافى ، فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول فى عهد بيبرس الذى عنى منذ توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ، وعقـد لذلك المعاهـدات التجارية مع شارل صاحب أنجـو (Anjou) وألفـونس (Alfonso) أمير اشبيليـة وجيمس ملك أرجونة[1] . غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره ســنة ١٢٧٤ م بمنع تصـدير المعادن وأدوات بناء السفن إليهـا . ويرجع السبب فى ذلك إلى القرار الذى أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ — ١٢٧٦ م) لأهالى مونبلييه (Montpellier) بمنع التجارة مع المسلمين[2] .

ولـما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلائق الودية ، التى أحكم أواصرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وأمبراطور القسطنطينية ، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه و بين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية . كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة وأنواع الببغاء[3] . وكان لذلك أثره فى استمرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، كما أرسل إليـه حاكم جزيرة سيلان سفارة ســنة ١٢٨٣ م ، ومعها كتاب تعـذر على رجال

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age pp. 422. 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 37-38.

حاشيته قراءته [١] . وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية ، وذكر له فى كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، كما بين له أن المصريين سيجدون فى جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند ، وأخيرا طلب من السلطان أن يعين مندوبا له بعدن [٢] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم فى تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون ، لأنه كان يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق . وكان كبيبرس رجلا إداريا بعيد النظر ، فبذل جهدا كبيرا لجذب التجار إلى مصر ، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم فى أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان [٣] .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية فى ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التى عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوربية والشرقية ، وأيضا بسبب اتصال أوربا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم من المماليك أصحاب النفوذ المطلق فى سورية ، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوربا عن طريق الاسكندرية ودمياط ، ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسى فخليج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب ، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ثم تنتقل فى النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط [٤] .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها بيبرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضا حركة التجارة الداخليـة بمصر، فأصبحت أسواق القاهرة تموج بكبار التجار، كما كانت الحوانيت تضيق بالباعة فى بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التى كانت بالقاهرة فى ذلك العصر سوق الفرائين ويباع به الفراء على اختلاف أنواعه، وسوق الجملون الصغير وبه كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية، وسويقة أمير الجيوش[1] وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدّة حوانيت للرفائين والرسامين، وسوق الشرابشيين[2] وكان يبـاع به الخلع التى كان يمنحها السـلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة، وسوق الحلاويين وكان من أبهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر، وكانوا فى ذلك العصر يتفننون فى صنعها على عدّة أشكال (وهى تشبه ما يصنع الآن فى معامل الحلوى فى المواسم والأعياد والموالد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها فى الأهمية ويباع بها الطرف والأمتعة والمأكولات .

(د) موارد الدولة المـالية — ولقد سار بيبرس على سياسـة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها ، فعين القاضى كمال الدين طاهر وكيلا لبيت المـال[4] وكلفه بالعمل على صيانته والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

---

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجملون الصغير فكان بالقرب من باب النصر، وتقع سويقة أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بن حنا .

(٢) سمى بذلك نسـبة الى الشرابيش التى كانت تباع به وهى أغطية للرأس مثلثـة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة فى عهد الملك الظاهر تحصر فيما يأتى[1] :

(١) الخــراج — وكان يجبى على حسب غلة الأراضى . فكان أكثر خراج الوجه القبـلى عينا و يتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحا أو شـعيرا أو حمصا أو فـولا ما بين أردبين إلى ثلاثة ، وفى بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضـه نقدا . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

(٢) الزكـاة — وكانت تؤخذ على الأغنام التى كثيرا ما كان يملكها قبائل عربية وتركمانيـة ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

(٣) الجــزية — وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون فى القاهرة ، وتتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرون درهما عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم فى خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

(٤) ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

(٥) ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التى تمر فى ثغور عيذاب والاسكندرية ودمياط . و بجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التى ترسو بها السفن على سواحل مصر فى طريقها إلى بلاد الشام .

(٦) المعادن التى تسـتخرج من المناجم المصرية — وأهمها معـدن الزمرد و يوجد بكثرة بالقرب من قوص — وكذلك معدن الشب بالواحات والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرون وأمناء من قبل السلطان ، وعليهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢ — ٤٦٣

(٧) التركات التى لا وارث لها . وكان يتولى الاشراف عليها فى حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها و إرساله إلى بيت المـال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرون يقومون بارسال ما يتحصـل منها إلى ديوان السلطان .

٥ — منشئات بيـبرس

اتخذ بيبرس قلعة الجبل(١) مقرا لحكمه وسار على سياسـة من سبقة من سلاطين مصر فى تجميل مدينة القاهرة وضواحيها، فأسس بها مدرسة زوّدها بالكتب التى تبحث فى سائر العلوم . وقد شرع فى بنائها سنة ٦٦٠ ﻫ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم(٢) . ووقف عليها أوقافا ، وأمر بألا يستخدم فى عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها .

ولمـا فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ ﻫ دعا العلماء والفقهاء والقرّاء للاجتماع بهـا ؛ فجلس أتبـاع المذهب الشافعى بالايوان القبلى والحنفيـة بالايوان البحرى وأهـل الحـديث بالايوان الشرقى والقرّاء بالايوان الغربى . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرّسا . وعند ما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل ثم مدّت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولمـا أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هـذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد عهد ببنائهـا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بهـاء الدين قراقوش لتكون مركزا للحكومة وقلعة للجند . وتمت عمارتها فى عهد الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ ﻫ ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقرا لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢

(٢) وهى إحدى قاعات القصر الفاطمى الكبير الذى بناه جوهر للمعز لدين الله الفاطمى .

والصيف[١] ؛ ثم شرع فى سنة ٦٦٥ ﻫ فى بناء الجامع الظاهرى ، فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاى والصاحب فخر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية؛ فوقع اختيارهم على مناخ[٢] الجمال السلطانية، فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال : " لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال، وأولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى " . ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقرّ رأيه على أن يبنى الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه ، ثم شرع فى استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات .

ولما فرغ من إعداد معدّات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقرّاء وقال : " هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفا لله . فإذا مت لا تدفنونى (كذا فى الأصل) هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه لله تعالى " .

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحدّ؛ بل إنه عندما آستولى على يافا وهدم قلعتها ، شحن مركبا من رخامها وأخشابها إلى القاهرة، وأمر بأن يبنى من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهرى . ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ ﻫ، وعين له خطيبا حنفى المذهب، وخلع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه . وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة[٣] .

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد القاطميين . وكانت صلاة الجمعة قد أبطلت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٩٠ أ .
(٢) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل .
(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠

ابن در باس فى عهد السلطان صلاح الدين[١]. وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدمر الحلى، فراعه ما آل إليه هذا الجامع وتحدّث مع الملك الظاهر فى مسألة إصلاحه، فأمدّه ببعض الأموال للانفاق عليه. وتبرع الحلى أيضا بأموال كثيرة لهذا الغرض، واستطاع بذلك أن يعمر الواهى من أركانه وسقوفه وجدرانه واستجدّ به مقصورة ومنبرا.

وعند ما فرغ من ترميمه تناقش الناس فى هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء، وعارض قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى إقامة الصلاة به. فشكا الحلى ذلك إلى السلطان، فتحدّث الأخير مع قاضى القضاة فى هذه المسألة فصمم على المنع. فما كان من الحلى إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به، وطلب من السلطان أن يحضر، فامتنع عن الحضور مالم يحضر قاضى القضاة[٢].

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ، وأدخلت عليه تعديلات أخرى، فأنشأ به الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرّسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدّثا يتلو الحديث النبوى وسبعة قرّاء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافا[٣].

ولم يكن هذا كل ماقام به بيبرس من ضروب الإصلاح؛ فقد بنى برجا بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع[٤] على الخليج المصرى، وأصلح ماتهدّم من كل من منارتى رشيد والأسكندرية، وجدّد سور الأخيرة، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة

(١) ذكر المقريزى: خطط ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٧٦؛ أن الخطبة كانت تقام فى جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقلد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن در باس وأن هذا القاضى لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الامام الشافعى وهو منع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى لاتساعه. (٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٦ — ٥٥٧

(٣) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤

(٤) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سباعا من الحجارة. المقريزى: خطط ج ٢ ص ١٤٦

من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر،واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسة سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدّتها إلى المدينة المنوّرة وأمهات مدن الشام . فقام بعدّة إصلاحات بالحرم النبوى ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وجدّد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل عامرا حتى هدمه تيمورلنك[١] سنة ٨٠٣ ﻫ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة فى عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعا خاصا كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التى بنيت فى عهد الدولة الأيوبية، وكانت عبارة عن بناء مبنى على سمت القبلة وفى وسطه صحن كبير مربع ، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لاتخرج عن كونها مسجدا .

ولما شرع بيبرس فى إنشاء الجامع الظاهرى استعمل فى بنائه لأوّل مرة مداميك[٢] الحجر الأبيض والأحمر على التوالى، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة فى طرز واجهات أبنية قلاوون الذى ابتدأ يدخل فى أيامه على فن المعمار شىء من المحسنات الأجنبية[٣] ؛ غير أن ابنه الناصر عند ما تولى سلطنة مصر شرع فى تطهير صناعة الأبنية العربية مما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره فى ارتقاء فن العمارة فى مصر[٤] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤ و ٦١٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١

(٢) أى طبقات من الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41.

(٤) مكس هرتس بك : لمعة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧ (تعريب على بك بهجت) .

٦ — الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسـلامية، فشيد لذلك المدارس وزودها بخيرة العلماء والفقهاء ، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين، فصار الطلاب يهرعون إليـه من كل أرجاء العـالم الإسلامى ، فاستعادت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية، ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم : محيي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل .

ويمتاز ابن عبد الظاهر[١] بأنه نشأ بالقاهرة وتلق بها علومه ، وبرع فى نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ . ومن مؤلفاته كتاب "السـيرة الظاهرية" ويشتمل على تاريخ الملك الظاهر بيبرس . وهو من المراجع الهامة التى يعتمد عليها فى استقصاء تاريخ هذا السلطان . وقد نقل عنه كل من النويرى فى كتابه نهاية الأرب ومفضل ابن أبى الفضائل فى كتابه "النهج السديد" .

أما ابن خلكان[٢] فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ بعد ما تلق علومه فى حلب ودمشق . ومن مؤلفاته كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء

(١) ولد محيي الدين بالقاهرة فى ٩ من المحرم سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م). ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتبا لسره بديوان الانشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام، فتولى قراءة نسب الخليفة العباسى سنة ٦٦١ هـ . وكتب تفويض عهـد السلطنة لولى عهـده الملك السعيد فى سنة ٦٦٢ هـ، كما كلفه بالذهاب الى عكاء سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان . وظل فى منصبه طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل .Enc. Isl. art. Ibn abd al-Zahir

(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) بمدينة إربل من أعمال الموصل وينتسب الى أسرة يحيي بن خالد البرمكى . وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شدّاد فى حلب ثم انتقل منها الى دمشق وأقام بها مدّة . ولم يلبث أن قدم الى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ، فعين بها نائبا لقاضى القضاة يوسف ابن حسن السنجارى . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضيا للقضاة بدمشق، ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التى أسسها الأمير فخر الدين استادار الملك الكامل سـنة ٦٢٢ هـ، وقضى بهـا سبع سنوات عاد بعدها الى منصبه الأوّل بدمشق ثم عزل منه سـنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) . وتوفى فى السنة التـالية ٦٨١ هـ Nicholson, a Literary History of the Arabs p. 448

الزمان"، وهو يحتوى على معلومات قيمة فى التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم .

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئا عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفى بعده بخمس سنوات، فجاء ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات فاستدرك ما فاته ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس .

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل[1] من منبت أجنبى عن مصر . فقد ولد بحماه وبها تعلم وتأدب، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ . ومن تآليفه "كتاب نخبة الفكر فى المنطق" و"مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" . وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . ويرجع السبب فى ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدّة سنين . أما بقيته التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهى من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر اسمه التاريخ . ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التى وردت فى كتاب "مفرج الكروب" (ج ٢ ص ٤٢٥ أ) ونصها : "قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إملاء القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وستمائة، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصرا من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك إنه على كل شىء قدير وإليه المصير" .

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ فى عصر الملك الظاهر كانت فى المحل الأول من عناية الكتاب، ولم يعن أحد منهم بدراسة العلوم النقلية كالجغرافية والفلسفة

(١) كان فى أول عهده مدرسا بحماه، ثم قدم الى القاهرة سنة ١٢٦١، فأرسله الملك الظاهر الى منفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين، فقضى هناك وقتا طويلا ألف فيه كتابه "نخبة الفكر فى المنطق" .Enc. Isl. art Ibn Wasil

والكيمياء والفلك . وقد يكون هـذا راجعا إلى أن الدراسة فى ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب فى هـذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلى الأول فى الرسائل التى كانت تحرر بديوان الإنشـاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء وإلى ولاته وعمـاله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيرا، لأن تقيده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا فى عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء[(١)] . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه :

مَن منصفى من معشـر ... كثروا علىّ وأكثروا
صادقتهـم وأرى الخرو ... جَ من الصداقة يَعْسـر
كالخط يسهـل فى السطو ... ر ومحوُه يَتعـذّر
وإذا أردت كشطتـه ... لكنّ ذاك يؤثّـر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيـبرس مجاهد بن أبى الربيـع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وكان فاضلا أديبا . ومن شعره[(٢)] :

أعد يا برقُ ذكرى أهل نجـدٍ ... فإنّ لك اليدَ البيضـاءَ عندى
أَشِمُك بارقًا فيضـلُّ عقـلى ... فواعَجَبـا تُضل وأنتَ تَهدى
بعثتُ مع النسِـيم له سـلاما ... فـا عُنـوا علىّ له بـرد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩

(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١

وهناك شاعر آخر عاش فى عصر بيبرس، وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ. وقد ولد هـذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ، ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة، وفيها تعلم علوم العربية والأدب، واشتغل بالكتابة والشعر، وولى الكتابة فى الدواوين، وتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم، وباشر بلبيس قصبة الشرقية فى ذلك الحين. ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدته المشهورة التى مطلعها[1] :

نَقَدْتُ طوائفَ المستخدمينا ... فلم أرَ فيهمُ رجلاً أمينا
فقد عاشَرتهُم ولبِثْتُ فيهم ... مع التجريبِ من عمرى سنينا

ويمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع. ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها :

أمِن تذكرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دمعًا جرَى من مُقلة بدمِ
أم هَبَّت الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ[2] ... وأومضَ البرقُ فى الظلماءِ من اضِمِ[3]

ومن حكمها البديعة :

والنفس كالطفل إن تُهمِلهِ شبّ على ... حب الرَّضاع وان تَفْطِمْه ينفطِمِ
فاصرف هواها وحاذر أن تُوَلّيه ... إنّ الهوى ما تولى يُصْمِ[4] أو يَصِمِ

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأولها :

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦

(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجله والفرات.

(٣) وادٍ يبتدئ من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر).

(٤) أى ما تولى منه من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود اذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب.

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ يا سماءً ما طاولتها سماءُ

لم يدانوك فى علاك وقد حا ل سنًا منك دونهم وسناءُ[1]

انما مثلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجومَ الماءُ

أنت مصباحُ كل ضوء فما تصـ ـدر الا عن ضوئك الأضواء

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيرى، ولكنهم لم يشقوا له غبارا بل تأخروا عنه . ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقى بك فى قصيدته التى عارض بها البوصيرى وسماها " نهج البردة " يعتذر عن تأخره عن اللحاق بالبوصيرى :

المادحون وأربابُ الهوى تبعُ لصاحب البردةِ الفيحاء فى القِدم

مديحُه فيك حبٌّ خالصٌ وهوى وصادقُ الحب يُملى صادقَ الكَلِم

وقد توفى البوصيرى بالأسكندرية سنة ٦٩٥ هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيرى تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية . وقد جدّد هذا المسجد فى أيام المغفور له سعيد باشا الأوّل والى مصر ونقشت البردة على جدرانه .

وهناك شعراء آخرون نظموا شعرا أشادوا فيه بذكر بيبرس فى الحفل الذى أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم : الأديب أبو الحسين الجزار، والسراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب[2] :

ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبنى المدارسَ من بنَى ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا

لقد ظهرتْ للظاهر الملك همةٌ بها اليومَ فى الدارين قد بلغَ المُنا

تجمَّع فيها كلُّ حُسْنٍ مفرقٍ فراقت قُلوبا للأنام وأعينا

(١) السنا : النور. السناء : الرفعة . (٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٩

ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيـ ... ـسة منها فى سرور وفى هَنا
وما هى الا جَنّـة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق :

مليك له فى العلم حبٌّ وأهله ... فلله حبٌّ ليس فيه ملام
ولا تذكرنْ ملكا فبيبرسُ مالكٌ ... وكلُّ مليكٍ فى يديه غلام
ولما بناها زَعزعت كل بَيْعة ... متى لاح صبح فاستقر ظلام
وقد برزتْ كالروض فى الحسن أنبأت ... بأن يديه فى النوال غَمام
ألم تر محرابا كأن أزاهرا ... تفتّح عنهن الغداة كمام(١)

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصَد الملوكُ حماك والخلفاءُ ... فافخرْ بأن محلَّك الجوزاء
أنتَ الذى أمراؤه بين الورى ... مثلُ الملوك وجندُه أمراء
ملكٌ تزينت الممالكُ باسمه ... وتجمّلت بمديحه الفصحاء
وترفّعت لعلاه خيرُ مدارس ... حلت بها العلماء والفضلاء
يبقى كما يبقى الزمان وملكه ... باقٍ له ولحاسديه فناء
كم للفَرَنج وللتتار ببابه ... رسلٌ مناها العفو والاعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة ... وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلدا ... ما أقبل الاصباح والامساء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر فى عهد بيبرس، بل هناك أشعار أخرى نظمها محيي الدين بن عبد الظاهر :

فمن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار(٢) :

يا مليكَ الأرض بشرا ... ك قد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هى ... عكا وزيادة

(١) كمام : جمع كم، وهو غلاف الثمر . (٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ص ٥٦٦

ومن قوله أيضا عندما آستولى الملك الظاهر على سيس[(١)] : .

يا وَيْحَ سيسٍ أصْبحت نَهْبَةً ... كم عَوَّق الجارى بها الجارية

وكم بها قد ضاق من مَسْلَكٍ ... يستوقفُ الماشِى بها الماشية

وله غير ذلك قصيدة يهنئ فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه نجم الدين خضر[(٢)] وفيها يقول :

يا مالكَ الدنيا ومَنْ ... بعزمه الدينُ نُصر

هنئت بالعيد وما ... على الهناء اقتصر

لكنّها بشارة ... لها الوجودُ مفتقر

تَفَرحة قد جمعت ... ما بين مُوسى والخَضَر

فأنت ترى مما أسلفنا لك من النظم الرائع أن الحالة الأدبية فى عصر بيبرس لم تكن متأخرة إلى الحدّ الذى يظن لأوّل وهلة . فإن كثيرا من مؤرّخى الأدب يرمى هذا العصر بالجمود الشعرى ؛ ولكنا نرى فى بعض هذه القصائد والقطع روحا شعرية عالية وطلاوة ومعانى مبتكرة ، كما سنرى قصيدة أخرى رائعة من نظم محيي الدين بن عبد الظاهر فى رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك . وهى فى نظرنا لاتقل روعة عن غرر القصائد فى أزهى عصور الأدب . ولا شك أن هناك أشعارا أخرى ضائعة ربما كانت أعلى من هذه فى الجودة . والزمان كفيل بكشف النقاب عنها .

٧ — الحالة الاجتماعية

كان يقطن بمصر فى عهد بيبرس عدّة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد الأصليين ، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك .

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأوّل ورقة ٣٦

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى المماليك الذين كانت تتكون منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، كما كان يسند إليهم أكبر مناصب الدولة . وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين والمصاهرة معهم[1] ، وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة .

وكان هؤلاء المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش ، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرماية . وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء ، كما مهر أيضا فى رمى السهام . وبلغ من عنايته بالرماية أنه أقام لها ميدانا[2] خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمى والنضال ، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل لهم ولرجال حاشيته[3] .

وبينما كان المماليك يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب . وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم . غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية ، فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء[4] .

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 216.

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمى القبق . المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١١ وقد زاد على ذلك المقريزى فوصف لعب القبق بقوله " إنه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على إحكام الرمى " .

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 250-251

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 253.

اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ، وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران. فعندما قدم الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هـذه الأمور التى تفسخ عهدهم، ثم أمر بإحراقهم، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق، وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار فى كل عام. فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريكهم دفع الأموال المطلوبة منهم، وتعهدوا بألا يعودوا إلى فعل شىء من المنكرات وبألا يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة [1].

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر فى أوائل عهد الملك الظاهر، واتخذوا الإسلام دينا لهم وأقاموا فى دور بنيت لهم فى أراضى اللوق [2]. وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الاقطاعات. وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم، وتزايدت بذلك العمائر فى اللوق والجهات التى حوله [3].

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر فى ذلك العهد. وكان بعضهم جنودا فى جيش السلطان؛ وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب فى الحياة العامة. وإلى جانب هـذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويشتغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ فى البلاد.

هذا، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته. فألزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات فى أوقاتها ليكونوا قادة الشعب فى الأمور الدينية كما هم قادته فى الشئون السياسية؛ وأتى على ما كان بالبلد من منكرات، فمنع

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٥؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) ذكر المقريزى: خطط ج ٢ ص ١١٧؛ أن اللوق كانت تطلق فى عهده على الجهات التى تعرف اليوم بباب اللوق.

(٣) المقريزى: نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨

المسكرات وخرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشرا منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا فى شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء . ولا عجب فى ذلك فقد كان سنيا مغاليا فى مذهب السنة ؛ فمنع النساء من أن تتعمم وتتزيا بزى الرجال، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش فى عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفاسدهم[1] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٤٠ و ٦١٢

خاتمة القول فى بيبرس

خاتمة القول فى بيبرس

نجح بيبرس فى سياسته التى كانت ترمى إلى إعلاء شأن مصر، فأخضع الصليبيين ببلاد الشام واستطاع أن يبسط نفوذه على بلادهم، كما صدّ غارات المغول عن مصر ومدّ حدودها جنوبا فى بلاد النوبة إلى حدّ لم يبلغه سلطان من قبله . وفى ذلك يقول صاحب كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية"[١] : "كان الملك الظاهر قد ملك فأسجح[٢]، وسعى فى ذات الله فأنجح، وقام بأعباء السلطنة أيما قيام وسهر فى إقامة منار الإسلام والناس نيام، وأعمل الركاب فى قطع شوكة عدوّ الله من الفرنج والتتار ... وجاء والنصر فكأنما كانا على ميعاد . فلم يزل رحمه الله يدأب فى افتتاح الحصون المغلقة ... ومهاجمة العدوّ فى عقر الدار، واستئصال شأفة الفرنج والأرمن والتتار ... فدوّخ البلاد وسلب الطارف والتلاد، وبدأ فى غزو أعداء الله بنفسه، وأغار وهاجم وتجهّم، وحكم وتحكم، وعلم وعلم وهزم الجيوش وأوحش حتى الوحوش، واستغرق مدّة ملكه فى بلاد يفتحها وغزوات يختمها بالنصر ويفتتحها . وأفنى العداة بعزائمه الماضية وهزائمه التى هى بالدمار على الأعداء قاضية، ومعاركه التى ما برحت لوعد الله فى نصره عليهم متقاضية، وجعل الكنائس مساجد والبيع لذكر الله معاهد، وأعدم المغل من التتار، وأخلى منهم الدار والجار، وأدب بسيفه من جار ... " .

كذلك كسب بيبرس محبة الأهلين بما سنه من القوانين وما اشتهر به من الحكمة والخضوع لأحكام الشريعة الغراء وتقديس فرائضها والعمل على ترقية شئون البلاد وتنمية مواردها ؛ فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد الدينية والمساجد التى

(١) شافعى بن على بن عباس : ورقة ٣ أ — ٣ ب .
(٢) أسجح = عفا .

كان يجلس فيها العلماء و يؤمها الطلاب من أقاصى البلاد ، وأعاد الأزهر الى سابق مجده؛ فسجل اسمه بذلك فى سجل العظماء وصحيفة الملوك المصلحين .

على أن هذا لم يكن كل ما اشتهر به بيبرس؛ فقد امتاز أيضا بشجاعته وعدالته. تظهر لنا شجاعته فى جميع أدوار حياته المختلفة فى القيادة والملك . فأيام كان قائدا ظهرت شجاعته فى كثير من المواقع الحربية ، نخص بالذكر منها موقفه إزاء الصليبيين فى موقعة المنصورة التى انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين، وكذلك فى موقعة عين جالوت التى صدّت فيها جيوش قطز بقيادة الأمير بيبرس جيوش التتار التى أغارت على بلاد الشام إغارة أخافت الأهلين وأوقعت الرعب فى قلوبهم . فكان لبيبرس الفضل الأسمى والقدح المعلى فى إعادة الطمأنينة إلى نفوس المسلمين، و إزالة ما نزل بهم من خوف و رعب، وما حل بهم من اضطراب إزاء إغارة هذا العدو المدمر . ونرى أيضا شجاعته عند ما تولى سلطنة مصر متمثلة فى كل الوقائع الحربية التى فصّلنا القول فيها ، وكلها — كما رأينا — كللت بالفوز وتوجت بالظفر بهمة بطلها ورجل حلبتها بيبرس .

أما عدالة بيبرس فتتجلى لنا — عند ما أصبح قائدا — فى معاملته العسكر معاملة حسنة ليس فيها محاباة لشخص ولا ظلم لآخر؛ فكلهم عنده سواسية ، لا تفضيل بينهم ولا إيثار لأحدهم على الآخر مهما بلغت صلته به إلا بعمل جليل يقدّمه للدولة . ونرى أن تلك الصفة قد ظهرت فأضاءت جزءا عظيما من صحائف التاريخ حينما صار بيبرس سلطانا على مصر وما إليها من البلاد التابعة لها . فقد كان أحسن مثل للحاكم العادل. يجلس بنفسه للظالم فيقضى بين الناس بالعدل و يرد الحقوق إلى أصحابها. و يضرب على أيدى المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ولو كانوا من خاصته.

كذلك خفف بيبرس أعباء الحياة عن شعبه، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين. فأرفد المساكين بالعطايا والنعم الجزيلة ، وظهر ذلك جليا عند ما اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضج الفقراء من الجوع فأحصاهم، وكلف كل أمير

بالانفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه الانفاق على خمسمائة فقير، كما عمل على تخفيف آلام ذوى العاهات، فنقلهم إلى مدينــة الفيوم وأفرد لهم بلدة تغــل عليهم ما يكفيهم [(١)] .

ولم يكن بيبرس بالرجل المعتدل فى كل أموره؛ فقد أخذ عليه المؤرخون غدره بتوران شاه وقطز وعدم وفائه بالعهــد الذى أعطاه للملك المغيث . لكنا نقف من الحكم عليه على هــذه التهم موقف الحيطة والتدبر، فنرى أن الحادثين الأولين كان الباعث عليهما خوفه على حياته من أن تمتد إليها الأيدى بالقتل. فإن تورانشاه كان قد اعتزم الفتك بجميع المماليك البحرية بمـا فيهم بيبرس، فارتكب هــذا ما ارتكب تخليصا لنفســه ولقومه . وأما ثانية هــذه الحوادث فسببها أن قطز كان قــد وعد بيبرس بأن يوليه ولاية حلب، ثم لم يلبث بعــد ذلك أن نقض وعده وبيّت فوق ذلك مكيدة أراد بها أن يقضى على حياة بيبرس. وبذلك لم يكن هناك بد فى هاتين الحادثتــين من التخلص من عدوبات يتربص به دائرة الســوء ويترقب له مصرعا عاجلا . ونحن لذلك نخالف المؤرخين فيما ذهبوا إليه فى تصوير هــذه الحوادث . فهو لم يقصد إلى الغدر قصدا ، وإنما أراد الدفاع عن النفس وهو أمر مشروع. أما ثالثــة هذه الحوادث فإن بيبرس لم يقتل الملك المغيث إلا حينما اتصل به تواطؤه مع التتار على القضاء على المماليك . عرف بيبرس هذه المكيدة المدبرة من المكاتبات التى دارت بين الفريقين المتآمرين والتى وصلت الى يده وقرأها على رجال دولته حتى لا يعتقدوا أنه غدر بالمغيث . هذا من جهة،ومن جهة أخرى فإنه بعمله هذا أراد أن ينبههم إلى الخطر المحدق بهم وببلادهم ليشاركوه حرصه على حماية البلاد واتخاذ التدابير اللازمة لذلك .

وأما ما ينسب اليه من مصادرة أموال بعض الأغنياء، فنحن نعتقد أنه مافعل هذا إلا لإعداد جيشه . والرجل الذى أسس دولة حديثة تتطلع اليها نفوس الغزاة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٧ — ٥٠٨ و٥٥٣ .

وعيون المحاربين لفى شدّة الحاجة الى المال الذى يعزز به كيان دولته ويقوى به جنده . وليس فى استطاعتنا أن نتصوّر من أين يجمع الأموال لإعداد جيوشه إذا لم يحصل عليها من هذه الناحية . فقد كان على هؤلاء الأغنياء أن يقدّروا خطورة الحالة التى تحيط ببلادهم، وأن يخرجوا عن بعض أموالهم فى سبيل حماية بلادهم والزود عن حياضها . فإن الرجل وماله ملك لدولته فى وقت الخطر . وما دامت حياته تعدّ رخيصة بجانب حفظ كرامة بلاده فأولى ثم أولى ماله . لذلك لا نعدّ عمل بيبرس مصادرة بالمعنى المعروف، وإنما هو درس وطنى يلقيه على هؤلاء البخلاء الذين كان يجب عليهم أن يبذلوا عن سعة كما قال تعالى: ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ . وهذا خير من إرهاق الضعفاء والفقراء من أبناء الشعب بضرائب لا قبل لهم بها ، مما يؤدّى الى ثورتهم فى وقت كانت البلاد فيه أحوج ما تكون الى الهدوء والسكينة .

وفاة بيبرس

لم يكد الملك الظاهر يتمتع بثمرة جهاده ونتائج أعماله حتى عاجلته المنية على أثر عودته الى دمشق من موقعة قيسارية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى سبب وفاته . فيذكر أبو الفدا[١]، وبيبرس الدوادار[٢]، والشيخ قطب الدين اليونينى[٣] أنه مات مسموما . غير أن المؤرخين الأولين يرويان لذلك رواية نستبعدها ولا نطمئن الى صحتها فيقولان : إنه لما انخسف القمر خسوفا كليا وشاع بين الناس أن رجلا عظيم القدر سيموت، أراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره، فدعا الملك القاهر الأيوبى لشرب القمز[٤] معه . ولما قدم اليه دس له السم وأخطأ الخادم فوضع لبيبرس القمز فى الكأس الذى شرب منه الملك القاهر فاعترته الحمى، ولم يلبث بعد ذلك أن مات فى يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ . أما اليونينى فإنه يعزو دس السم للملك القاهر الى سببين : (أولها) حقد بيبرس على ذلك الأمير عندما كان معه ببلاد الروم وأبلى بلاء حسنا كان موضع اعجاب الناس، و (ثانيهما) استياء الملك الظاهر منه لأنه انتقده على توريطه عساكره ببلاد الروم، فأسر له ذلك الى أن قدم دمشق، فدعاه لشرب القمز معه ودس له السم .

ويروى المقريزى[٥] رواية أخرى هى أقرب الى الحقيقة من الروايات السالف ذكرها، وهى أن بيبرس على أثر قدومه الى دمشق جلس فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٦٧٦ هـ يشرب القمز . وقد عظم سروره من انتصاره على المغول والروم، فأكثر من الشرب . ولما انتهى من ذلك شعر بفتور وتوعك واشتد عليه الألم

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ١٠ (٢) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٦ (٣) الذيل على مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ١١٢ — ١١٣

(٤) القمز : نبيذ يعمل من لبن الخيل . وكان بيبرس مشغوفا بهذا النوع من الشراب Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 273

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣٥

عندما ذهب الى ميدان دمشق فى اليوم التالى، فجهز له بعض خواصه دواء لم يكن ناجعا . فاستدعى الأطباء فأشاروا عليه بأخذ دواء مسهل . غير أن ذلك لم يخفف عنه وطأة المرض، فظلت قواه تضعف حتى قضى نحبه، فكتم الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نعيه عن الجمهور وأرسل الى الملك السعيد يخبره بوفاة والده، ثم وضع جثة الملك الظاهر فى تابوت ونقلها الى قلعة دمشق، فظلت هناك الى أن اشترى الملك السعيد دار العقيق بدمشق وأعدها لتكون مدفنا لوالده . ولما تمت عمارتها احتفل بدفنه بها فى ليلة الخامس من شهر رجب سنة ٦٧٦ هـ بعد أن صلى عليه فى صحن جامع دمشق (١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الملك العظيم والقائد المحنك والسياسى الماهر، فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة، ورثاه كاتب سره محيى الدين ابن عبد الظاهر بهذه الأبيات (٢) .

اللهُ أكبرُ إنها لمصيبةٌ	منها الرواسى خيفة تتقلقل
لَهفى على المَلِك الذى كانت به الد	نيا تطيب فكل قفرٍ مَنزِل
الظَاهرُ السلطان من كانتْ له	مِنَنٌ على كل الورى وتطوّل
لهفى على آرائه تلك التى	مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد	غَفَلت وكانتْ قبلَ ذا لا تغفل
ما للرمال تخولتها رِعدة	لكنّها إذْ ليس تعقل نعقل
سهمٌ أصاب وما رمى من قبله	سهم له فى كل قلب مقتل
أنا إن بكيتُ دما فعذرى واضح	ولئن صَبَرت فإننى أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع	منهلة فى أوجه تتهلل

فرحم الله بيبرس وأجزل مثوبته وأسكنه فراديس جنته وجزاه خيرا عن الإسلام والمسلمين .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٦٨ — ٣٦٩

(٢) ابن إياس ج ١ ص ١١٠ — ١١١

مصادر الكتاب

(أ) المصادر العربية

(١) ابن أبى الفضائل (مفضل ...) :
" كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد "
(Paris 1911, 1920.)

(٢) ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .
" كتاب تاريخ مصر " المعروف " ببدائع الزهور فى وقائع الدهور "
(بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

(٣) ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على .
" رفع الاصر عن قضاة مصر " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(٤) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .
" العبر وديوان المبتدأ والخبر " (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٥) ابن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) : فخر الدين محمد ... بن أحمد الكتبى .
(١) " عيون التواريخ " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
(٢) " فوات الوفيات " .

(٦) ابن عباس : شافعى بن على بن عباس .
" المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس) .

(٧) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه .
" المختصر فى أخبار البشر " .

(٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) : جمال الدين بن يوسف ابن تغرى بردى .
"النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة).

(٩) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ) : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم
"مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة).

(١٠) بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ هـ).
" زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة " (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) .

(١١) السيوطى (+ ٩١١ هـ) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد .
(١) " تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة " .
(٢) " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " .

(١٢) العينى (+ ٨٥٥ هـ) : بدر الدين محمود .
" عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٣) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
" صبح الأعشى فى صناعة الانشا " .

(١٤) المقريزى (+ ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .
(١) " السلوك لمعرفة دول الملوك " (طبعة الدكتور زيادة) .
(٢) "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" (طبعة بولاق ١٢٧٠ سنة هـ)

(١٥) النويرى (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.
" نهاية الأرب فى فنون الأدب " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٦) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ، ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى.
" معجم البلدان " .

(١٧) اليونينى (+ ٧٢٦ هـ) : الشيخ قطب الدين .
" الذيل على مرآة الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(ب) المصادر الافرنجية

(1) ARNOLD, PROF. (SIR THOMAS)

1. — "The Preaching of Islam."

2. — "The Caliphate."

(2) BARKER, ERNEST.
"The Crusaders."

(3) BROWNE, : EDWARD G.

Vol. II "Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di."

Vol. III "Persian Literature Under Tartar Dominion."

(4) DAVIES, REV. E. J.

"Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France.

(5) HEYD; W.
"Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age."

(6) JOINVILLE, (SIRE DE)
"Memoirs of the Crusades."
By Villehardouin & Joinville. Translated by Sir Frank Marzials.

(7) KING.
"The Knights Hospitallers in the Holy Land."

(8) LANE - POOLE, STANLEY.

"A History of Egypt in the Middle Ages."

(9) LE STRANGE (G.).
"Palestine under Moslems."

(10) Muir, (Sir William).

1. — "The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall."

2. — "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt."

(11) Nicholson, Prof. Reynold. A.

"Literary History of the Arabs."

(12) Stevenson, W. B.

"The Crusaders in the East."

(13) Cambridge Medieval History, Vol. IV.

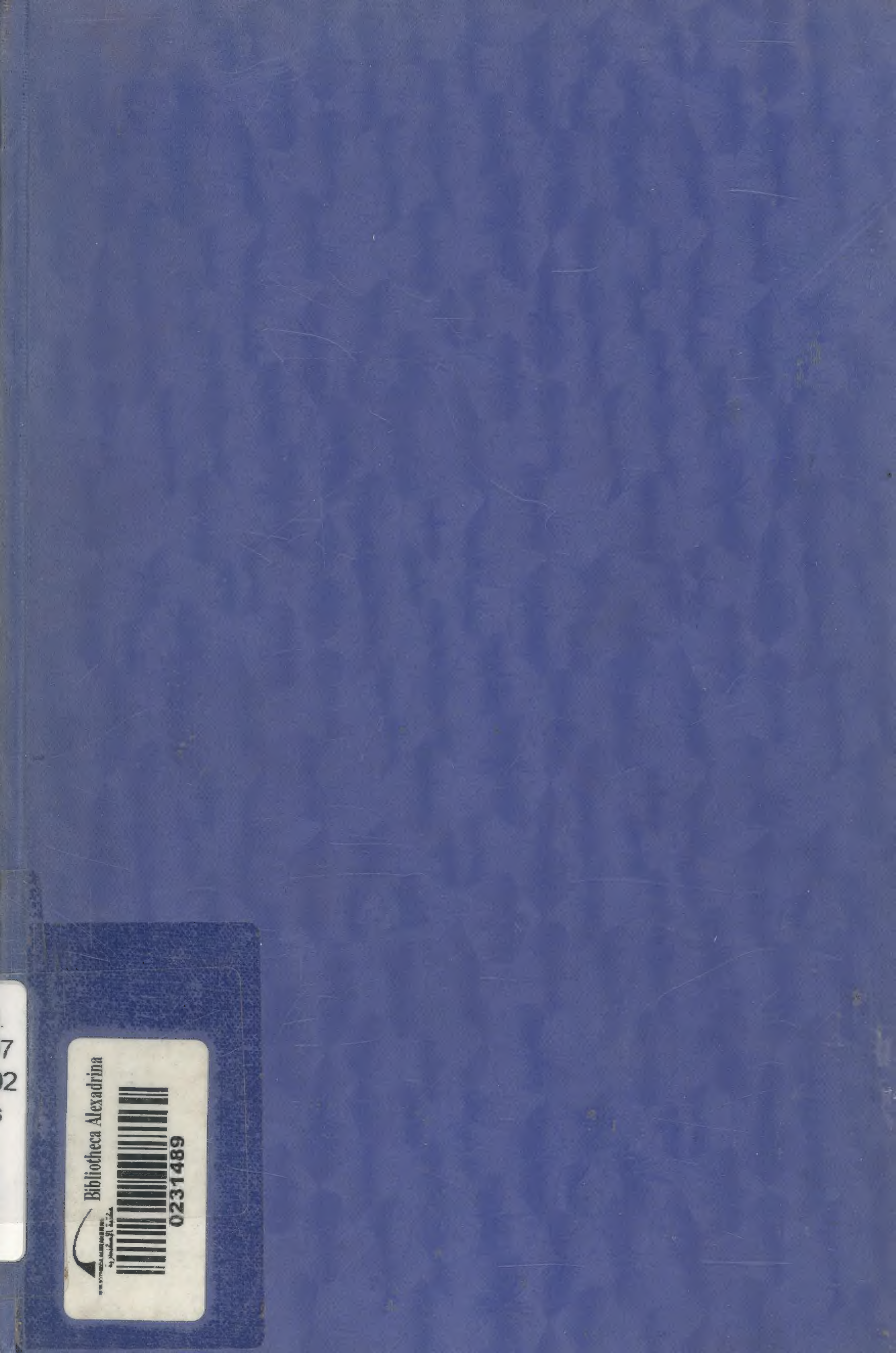
(14) Encyclopaedia of Islam.

* * *

كَمُلَ طبع كتاب " الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ٢٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧
(٢٦ يونيه سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٣/١٥٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0231489